في حضرة الجان

obeikan.com

الكتاب : في حضرة الجان

المؤلف : حسن الجندي

تصميم الغلاف : أسامة علام

تدقيق لغوي : أحمد أسامة

رقم الإيداع : 2016/10134

الترقيم الدولي : 978-977- 778-061-2

صدرت الطبعة الأولى : 2015

الطبعة الحديثة : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

في حضرة الجان

قصص

حسن الجندي

نون للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى أرواح رجال القبور الحديدية المسماة بالغواصات ..
كتب عليكم القتال في صمت والموت في صمت

obeikan.com

obeikan.com

الحرب رائعة .. لأولئك الذين لم يجربوها بعد

(ديسدريوس ايراسموس – فيلسوف هولندي)

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

الغواصة 633

obeikan.com

(1)

لقد وصلت للسادسة والسبعين من العمر ولا أملك ما أتذكره عن حياتي إلا القليل، تزوجت وأنجبت وأنهيت عملي في القوات البحرية المصرية بشكل مشرف، لم يسألني أولادي عن أي عملية حربية قمت بها كأنني عملت في الأرشيف بإحدى المصالح الحكومية، برغم أن خبرتي القديمة في حرب الغواصات جعلت مني مستشارًا غير رسمي للعديد من ضباط البحرية أثناء خدمتي وبعد خروجي على المعاش.

لكني تعودت على عدم الفضول من عائلتي فيما يخص عملي، حتى الصحف العالمية التي كتبت عني واحتفظت بقصاصاتها لم يفكروا في الاطلاع عليها أو سؤالي بشكل عابر، وبالطبع لن أفرض نفسي عليهم فاحتفظت بتفاصيل عملي لنفسي ولضباط البحرية ممن سمعوا من قادتهم عن عملياتي الحربية والاشتباكات التي قمت بها.

اسمي هو (محمود عبد الفتاح البدوي)، كنت من الرعيل الأول الذي تدرب على الغواصات في مصر، تلك القبور الحديدة الغائصة في الماء التي يسميها البعض بالموت الصامت.

صفة الموت تشمل العدو وتشملك أنت أيضًا، خطأ بسيط تفعله داخل المياة يحول غواصتك من آلة هجومية إلى قبر فريد من نوعه،

تموت داخله ببطء شديد يسمح لك بلعن نفسك ألف مرة على دخوله من الأساس.

في عام 1957 أرسلت بشكل سري مع الكثير من الضباط إلى (بولندا) للتدرب على قيادة الغواصات، وخاصة بعد أن أرسل الاتحاد السوفيتي لمصر بعض غواصاته التي خرجت من الخدمة.

تخصصت في البداية في الطوربيدات، كانت في هذا الوقت بدائية مقارنة بما تم تطويره منها في السنوات التالية، فلزم على قائد الغواصة الذي يرصد الهدف أن يعرف سرعته واتجاهه ويتوقع وصوله لنقطة معينة يقوم عندها بإطلاق الطوربيد ليصطدم بأسفل الهدف عند هذه النقطة المتوقعة.

هذا غير أن الطوربيد يخرج الكثير من فقاعات الهواء من خلفه فيسمح للسفينة أو المدمرة برؤيته من على مسافة كبيرة، عندها تتمكن من إجراء مناورة سريعة للهروب منه.

أنهيت تدريبي وعدت لمصر مع بقية زملائي نستعد لقيادة تلك الوحوش البحرية المخيفة، منتشين بالدورة التدريبية البسيطة التي حصلنا عليها.

ترقينا في مناصبنا وأصبحت أنا (قومندان) غواصة عام (1965) وظللت حتى ترقيت لقائد لواء غواصات في (1974) .. قامت الغواصات في فترة حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر بالكثير من العمليات تتعدد بين الاشتباك مع قطع بحرية إسرائيلية أو التنصت على رادارات العدو أو زرع

قنابل أعماق وغيرها من العمليات التي ظلت غير معلنة في الكثير من الأحيان داخل مصر لطبيعة عمل الغواصات السرية التي تعتمد على خداع بعض الدول الصديقة والمرور من مياهها الإقليمية أو قطعها البحرية إن استلزم الأمر، فيصبح الإعلان عنها بمثابة لطمة للقوات البحرية لهذه الدولة وتقليل من سيادتها البحرية على مياهها الإقليمية.

حتى هذه السن لم تحتفظ ذاكرتي بشيءٍ هام عن تلك العمليات الخطيرة بعد أن أصبحت ذكريات فقدت زهوتها بعد سنوات إلا ذكرى واحدة، لم أدونها في أي مذكرة رسمية أو أتناقلها شفاهة إلا في نطاق ضيق يسمح لي بالفضفضة ومشاركة أقرب زملائي فيما حدث.

في عام (1972) كنا نكلف بالكثير من أعمال الاستطلاع على الموانيء الإسرائيلية ونقاط الرادار ومواعيد دخول وخروج المدمرات والفرقاطات الإسرائيلية لموانيها، لم نعرف أسباب اختيار مناطق بعينها وإن كنا نفهم ضمنيًا أننا نوفر معلومات هامة في رسم خرائط لبقية أفرع القوات المسلحة وللبحرية تستخدمها في عمليات لاحقة.

في 22 من شهر نوفمبر استدعاني رئيس شعبة البحرية صباحًا وهو يكلفني بعملية جديدة سرية، سلمني حقيبة يد تحتوي على تفاصيل المهمة مع تعليمات بعدم فتحها إلا في نقطة محددة في البحر الأبيض، وقال لي بالنص أن تلك العملية لا يعلم بها إلا قائد القوات البحرية.

عدت لوحدتي لأجمع طاقم غواصتي فعرفت أن الغواصة التي أقودها دخلت في الصيانة بسبب اكتشاف تسرب في الزيت وعطل في نظام شحن

البطارية ولن تخرج قبل أيام، عدت لرئيس الشعبة بالخبر لنؤجل المهمة لكنه أصر أن تبدأ اليوم.

أجرى بعض الاتصالات من داخل مكتبه ثم قال لي أن المتاح الآن الغواصة (633) والتي كانت ستخرج بعد ساعات في طلعة تدريبية روتينية، وافقت لكنه تناقش معي في فكرة عدم الاستعانة بكامل طاقمي ليحلوا موضع طاقم الغواصة (633) كي لا نثير الشبهات بالخروج في مهمة خاصة.

لو وصلت تلك المعلومة ولو مصادفة للقوات البحرية الإسرائيلية ستتخذ احتياطًا يكفي لفشل المهمة من الأساس، رفضت في البداية لكني وافقت على الاستعانة بخمس ضباط و15 جندي دونت أسمائهم من طاقمي وقد بلغني بأن الغواصة تم إغلاق أحد أنابيب الطوربيد بها منذ فترة بسبب مشكلة مزمنة، وأن الأنبوب الآخر سليم ولكن لن أحتاجه في مهمتي.

عدت لطاقمي بأمر خروج للتدريب للأسماء التي حددتها، انتقلنا بعدها للغواصة التي نسق رئيس الشعبة مع قائدها ليسلمها لي للقيام بطلعة تدريبية مع بعض طاقمه كي أزود أنا ومن معي خبراتهم في المناورات.

استلمت الغواصة بعدما نسقت مع قائدها السابق في توزيع طاقمي في أماكنهم بدلًا من الطاقم الأصلي، حتى أنني مررت عليهم جميعًا لأتمم بنفسي على كل أجزاء الغواصة، وفحصت أنبوب الطوربيد المعطل وناقشت جندي الطوربيد الذي كان من طاقمي الأصلي الذي اخترته،

تناقشنا حول سبب العطل، وفحصت الانبوب الباقي الذي يعمل جيدًا إلا من بعض الثقل في فتح فوهته التي يخرج منها الطوربيد.

مشكلة بسيطة وجدتها في الشنوركل الذي يمد الغواصة بالهواء تحت الماء لكن المهندس طمأنني منها، بعض الأجهزة ناقشت الطاقم فيها وأبدوا ملاحظاتهم التي جعلتني أتوكل على الله وأبدأ الإبحار مطمئنًا.

***

-" خايف الطقم القديم بتاع الغواصة ما ينسجمش في التدريب مع رجالتنا "

سمعت تلك العبارة من الرائد (يحيى) مساعدي وهو يدخل الكابينة عليّ، كنت أراجع بعض الخرائط الملاحية لأتأكد من وصولنا للنقطة المطلوبة لبدء العملية

-" ما تخافش، هياخدوا على بعض بسرعة، أنا متأكد "

لم أنظر له وأنا أتكلم فتركني عائدًا لكابينة القيادة لكنه فوجئ بي ألحقه حاملًا خريطة وأنا أعطي الأوامر بتغيير اتجاهات الغواصة للخروج من المياة الإقليمية.

نظر جميع من في الكابينة لبعضهم البعض نظرة قلق لم تستمر لثانية واحدة حتى عاد كلًا منهم بعدها في التركيز بعمله وأنا أعطي الإحداثيات الجديدة وأراقبها بدقة.

أمسكت ميكروفون المذياع الداخلي للغواصة وضبطته ليسمعني كل أفراد الطاقم

-" كتير منكم ما يعرفنيش لكن سمع عني، أنا قومندان الغواصة (محمود البدوي) اتشرفت النهاردة بالخدمة معاكم على ضهر الغواصة، إحنا مش طالعين للتدريب زي ما تم تبليغكم، إحنا رايحين لمهمة خطيرة كلفنا بيها قائد البحرية بنفسه "

سكتت لثوانٍ أبحث عما أقول لأمتص صدمتهم، قلت:

-" التكليف ده شرف لينا كلنا، وحِمل على أكتافنا لازم نكون قده، أنا واثق في كل فرد معايا هنا وواثق إنكم هتشرفوا مصر في مهمتنا وترجعوا لأهلكم أبطال يفتخروا بيكم في كل مكان "

رفعت إصبعي من على الميكروفون وأنا أشعر بأن كلماتي مفككة لم تُثِر أي مشاعر داخلهم عندما أتاني صوت الطاقم مكبرًا بحماسة يهز جدران الغواصة .. ابتسمت وأنا أمسك الميكروفون مرة أخرى أطلب من الجنود أصحاب المهمات الغير مستخدمة الآن أن يصعدوا لسطح الغواصة الطافية إن أرادوا.

فتح (يحى) الهاتش العلوي للغواصة وخرج مع الجنود وبعض الضباط يستنشقون هواء البحر باستمتاع لحظة مغادرتنا للمياة الاقليمية.

عدت أنا لكابينتي مرة ثانية وقمت بفتح الحقيبة طبقًا لإحداثيات المنطقة التي تمر بها الغواصة، فوجدت بها مظروفان كتب على واحد

منهما (المهمة 1) فتحته فوجدت تكليف بالتسلل لميناء (حيفا) الإسرائيلي والتواجد على مسافة محددة.

دققت في المسافة فوجدتها أقرب من المسافة الآمنة لأي غواصة، احتمالات كشفها مرتفعة من تلك المسافة.

عدت لكابينة القيادة وأنا أستعد لبداية المهمة، أطلقت صافرات الإنذار الخاصة بقرب قطعة معادية مع إعطاء أوامر بالغطس السريع واتخاذ مراكز القتال لبدء اشتباك، في الواقع كان اختبارًا مني لتجانس أفراد الطاقم الذين اتخذوا مواقعهم بسرعة أمام معداتهم.

من كانوا على السطح قفزوا بانتظام داخل فتحة الهاتش وأغلقها آخرهم والغواصة تغوص لعمق 10أمتار فقط، كنت قد حسبت سرعة الغطس للطاقم فوجدتها 37 ثانية وهو رقم مرضي وبَيَّنَ لي قدرة الطاقم وسرعة حركته وثباته.

أمرتهم باللاسلكي بإعطائي تمام عمل على كل جهاز، جميع الأجهزة تعمل بكفاءة حتى سمعت تمام جندي الطوربيد، صوته لم يُرِيْحَنِي، حَدَّثْتُهُ فعلمت منه بأن رأسه أُصِيبَت.

طلبت من الطبيب الذهاب لغرفة الطوربيدات وذهبت أنا الآخر لأجد جندي الطوربيد يتربع أرضًا وجندي آخر صغير الحجم بملابس المطبخ يقف أمامه ويضغط بقطعة قماش على رأس جندي الطوربيد.

جاء الطبيب واكتشفنا جرح يزيد عن السبعة غرز، فقام الطبيب بتخييطه دون إعطاءه مخدرًا وقد كانت شجاعة يحسد عليها.

-" إنت الطباخ؟ "

قلتها للجندي الذي ارتدى ملابس الطبخ فأعطاني التحية وهو يقول:

-" جندي مجند (مصطفى عرفة) مساعد طباخ يا فندم "

-" جيت لغرفة الطوربيد ليه؟ "

-" سمعت صوت من الأوضة والمطبخ قريب من هنا، جريت علشان أشوف إيه اللي حصل، لقيت دماغه مفتوحة والظاهر كده إن دماغه خبطت في باب أنبوب الطوربيد والغواصة بتعمل غطس سريع"

-" كويس إنه كتم الدم بسرعة "

قالها الطبيب الذي يخيط الجرح بدون أن ينظر لنا.

-" جدع يا (مصطفى) "

من بين أسنانه التي يجز عليها قال جندي الطوربيد:

-" طابخين إيه على الغدا يا (مصطفى)؟ "

ضحكت فتبعني الجميع مفرغين ضغط تلك اللحظات.

-" ارتاح إنت يا (إبراهيم) وأنا هَنَزِّل حد مكانك في الطوربيدات "

قلتها لجندي الطوربيد فرفع يده معترضًا وهو يقول:

-" لأ يا فندم أنا كويس الحمد لله، شوية كدة وهفوق "

-" هَدِّيلك نص ساعة راحة لو ما قدرتش تكمل بعدها هبعت حد ياخد مكانك "

-" تمام يا فندم "

غادرت الغرفة وعدت إلى كابينة القيادة لأجد ضابط الإنذار يبلغني بأن جهاز الاستطلاع الراداري يلتقط مجموعة إشارات، حللنا الإشارات لنكتشف أنها قطع بحرية ضخمة على سطح الماء سنقابلها بطريقنا.

طلبت منه إرسال إشارة إلى قيادة القوات بموقع تلك القطع البحرية طالبًا الرد، جاء الرد بعد قليل بأن تلك القطع حسب الإحداثيات التي أرسلتها لهم طبقًا لخطوط الطول والعرض هي وحدات بحرية للأسطول السادس الأمريكي، ولم تتكلم الإشارة عن شيءٍ آخر، لا أمر بالانسحاب أو المرور بينها، لقد تركوا الأمر لي.

قمت بعمل اجتماع سريع للضباط بالكابينة لنناقش تلك المصيبة، وقمت بعرض الحلول المتاحة.

-" مفيش غير إما إننا نطفي المحركات ونستنى لغاية ما الأسطول يتحرك من مكانه، أو إننا نلف حواليه "

قال (يحيى):

-" لو فضلنا تحت المية لحد ما يتحركوا ممكن يستنوا أيام والغواصة مش هتستحمل إنها ما تطلعش لفوق علشان نشحن محركات الديزل عن طريق الهوا "

فزدت عليه أنا:

-" مفيش غير إننا نلف من مسافة آمنة حواليهم، لكن ده ممكن يأثر على الوقود الخاص بمهمتنا وما نقدرش نرجع القاعدة تاني "

-" ليه ما نحطش يا فندم إمكانية إننا نعدي من وسطهم، الموضوع صعب لكنه مش مستحيل، إحنا درسنا أساليب خدع وتمويه كافية أوي إن محدش يكشفنا "

راقتني الفكرة برغم جنونها، نظرت لوجوه الضباط لحظات أتقوى بهم ليمنحوني الدعم النفسي لاتخاذ هذا القرار .. استفسرت عن حالة المياة من الضابط المسئول عن تحليل عينات المياة التي نأخذها كل بضعة كيلومترات لنعرف نسبة الملوحة والكثافة، عرفت منه بعض الأعماق في المياة ذات الكثافة العالية التي من الممكن أن تقلل احتمالات اكتشاف الغواصة بدرجة كبيرة.

أنهيت الاجتماع ولم أتخذ قرارًا بعد، لو اكتشفتنا إحدى قطع الأسطول سأضطر للاشتباك معها، وستصبح فضيحة دولية لمصر وفي الغالب سيتم إغراقنا أو تتبعنا، وفي كل الأحوال النتيجة هي فشل المهمة الأصلية.

أمسكت بالميكروفون وأنا أتحدث عبر المذياع الداخلي:

-" فيه قرار لازم أخد رأيكم فيه، اكتشفنا في طريقنا قطع بحرية تابعة للأسطول السادس، مهمتنا السرية تجبرنا إننا نعبر من تحته علشان نوصل لهدفنا، يا إما نلغي المهمة ونرجع القاعدة تاني، الموضوع مالوش دعوة بالشجاعة أو الجبن، لو رفضتم بالإجماع إننا نعدي هَنِرْجَع والقيادة مش هتتضايق، ولو وافقتم على العبور يبقى هنتوكل على الله ونشيل أرواحنا على كفوفنا في عملية صعبة جدًا الغلطة فيها بموتة .. القرار ليكم "

لا أعرف كيف نظموا أنفسهم لكن لم تفت دقيقة إلا وجائني فردًا فردًا كل واحدًا يتحدث بالنيابة عن مجموعة يذكر لي أسماءهم، الجميع يقبل المرور بحماسة حتى لم يبق على طاقم الغواصة فردًا إلا ووافق.

***

(2)

أعطيت أمرًا بالغطس لثمانين مترًا وإخراج (بلوف) تحليل الماء لأتأكد من كثافة الماء كل متر، حتى أضمن صعوبة كشفنا.

المسافة التي كان يمكن قطعها في 3 أو 4 ساعات قطعناها في 48 ساعة، نقطع مترًا مترًا بحذر شديد بمناورة حساسة لنمر بين المسافات الآمنة للقطع البحرية.

غيرت عمق الغطس كثيرًا عندما وصلني اختلاف كثافة المياة، لا أعرف كيف تحمل رجال الغواصة هذه الساعات يتحركون بحذر ويتكلمون همسًا داخل الغواصة كي لا يلتقطهم الأسطول.

فقدنا الإحساس بالليل والنهار وكدت أموت غيظًا من عدم التدخين، وبالتأكيد شاركني هذا الإحساس العشرات من رجال الغواصة لكن لم يشتكِ أحد.

جاء ضابط المراقبة ليبلغني أن النبضة الأخيرة لم تسجل أي قراءات لقطع بحرية أمرته بإعادة النبضة مرة ثانية وثالثة ورابعة .. النتيجة واحدة، أمرت بأن تعمل جميع الرادارات وجائني الرد بعدم وجود أي أهداف قريبة.

أمسكت بالميكروفون وتكلمت في الإذاعة الداخلية والفرحة تكاد تقتلني

-" خرجنا من منطقة الخطر بسلام، مبروك يا رجالة "

هذه المرة ارتجت جدران الغواصة بأصوات الفرح والتهليل التي استمرت لفترة طويلة ولم تتوقف إلا لثوان عندما قلت لهم:

-" استعدوا للخروج من الهاتش علشان نشم شوية هوا "

عاد التهليل أكثر من السابق، هؤلاء الرجال يعتبرون استنشاق بعض الهواء النقي أكبر مكافأة لهم على عمل يشبه الهبوط على القمر.

أعطيت الأوامر بالصعود والتوقف لشحن البطاريات، وطلبت المخزنجي وأخبرته بأن يعطي كل مدخن علبة سجائر هدية ويكتب سعرهم بالدفتر على حسابي، صعدت لسطح الغواصة التي تراص عليها العشرات يتحدثون ويدخنون وبعضهم يكتفي بالجلوس والنظر للسماء وقت الغروب.

وقف الجميع احترامًا لي وبعضهم يردد كلمات الشكر فطلبت منهم العودة للاستمتاع بتلك اللحظات واخترت لنفسي مكانًا خاليًا جلست فيه أستمتع بهذا الانتصار الذي لن يسمع أحدٌ به في الغالب خارج سلاح الغواصات.

وقف بجانبي (مصطفى)، و(إبراهيم) الذي غطت اللاصقة الطبية نصف وجهه والإثنان يدخنان السجائر:

-" تسمح نقعد جنبك يا فندم؟ "

-" الله .. دا انتوا اتصحابتوا بقى .. أقعدوا "

جلسا بجانبي و(إبراهيم) يقول:

-" دا (مصطفى) طلع من غيط العنب شرق، جنبي على طول "

ابتسمت لهما وأنا أخرج سيجارة من علبة السجائر وأشعلها بعود ثقاب و(مصطفى) يقول:

-" بس كانت ضربة معلم يا قومندان، تسلم إيدك "

-" تسلم إيديكوا إنتوا، لولا تعبكم ما كناش عدينا من وسط ولاد الهرمة دول "

نظرت بعدها أمامي وأنا أستمتع بدخان السيجارة و(مصطفى) يقول:

-" بس تعرف يا فندم إحنا حربنا مش مع إسرائيل "

نظرت له مضيقًا عيني فاسترسل في الكلام

-" أمريكا هي اللي بتدي إسرائيل السلاح عشان تحاربنا، والسوفييت بيدونا إحنا كمان السلاح عشان نحارب إسرائيل، حاسس إننا زي العرايس اللي بيحركونا علشان نخش الحرب بدالهم"

لم أعرف ماذا أقول، كل ما استطعت فعله هو تغيير دفة الحديث:

-" إنت درست إيه يا (مصطفى)؟ "

-" أنا سياحة وفنادق يا فندم، واخدها من القاهرة بس عشان اتولدت هنا تجنيدي جالي هنا "

-" علشان كدة دخلت مطبخ "

قلتها بلهجة تقريرية لأغلق الحديث لكن (مصطفى) قال بتأثر:

-" كنت رقيب طوربيد في أول 7 شهور، بس نقلوني للمطبخ فجأة، يمكن علشان شافوا إن بتاع السياحة والفنادق ما ينفعش إلا في المطبخ "

نظرت أمامي ولم أرد عليه فقال (إبراهيم) وهو ينهض ويسحب معه (مصطفى):

-" نسيبك بقى يا فندم "

ابتعدوا وأنا أنظر لهما مبتسمًا، ربما كان في كلمات (مصطفى) شيء من الصحة، أمريكا والاتحاد السوفيتي يتعاملون معنا كفئران تجارب لقوة أسلحتهم التي لم يستخدموها في معركة حقيقية، ونحن نفرح بهذا وننجر للفخ أكثر وأكثر .. بعد قليل نسيت أو تناسيت تلك الأفكار وأنا أعود لداخل الغواصة ثانية.

***

-" قربنا من ميناء حيفا "

قالها ضابط الملاحة فأمرت بالغطس واتخاذ سرعة متوسطة، دلفت بعدها لكابينتي الشخصية لأفتح الظرف الثاني الذي خُطَّ فوقه (مهمة2)، وجدت به خرائط مفصلة للميناء والأرصفة وبعض نسب الأعماق وأماكن المدفعية الساحلية، وتكليف جديد برصد حركة دخول المدمرات ومكوثها

وأماكن الصيانة وحركة لانشات الطوربيد والصواريخ وطلب تفصيل عن كل ما يخص لنشات الصواريخ المسماه (سعر) التي صنعتها (إسرائيل) وأخفت كل ما يخصها، مع التنصت على لاسلكي القاعدة البحرية القريب من الميناء وتسجيل كل ما يرسله أو يتلقاه، المهمة تنتهي بعد 22 يوم.

طلبت (يحيى) وبعض مساعِدِيَّ لدراسة أنسب الطرق للدخول للميناء، اتفقنا على الخطة وبدأت التنفيذ.

غطسنا إلى عمق 50 متر واقتربنا من الميناء بشدة، ثم رفعت بيرسكوب الغواصة أراقب حركة الأرصفة تحت الأضواء الكاشفة الصادرة من داخل الميناء نفسه.

هنا طلبت من الكثير من الجنود والضباط أن يأتوا ليشاهدوا الميناء من البيرسكوب كي يكتسبوا ثقة أعلى بقدرتنا على المكوث داخل أرض العدو وتحت عينه وبصره بلا أن يتم اكتشافنا.

زاد حماس الجميع ومن رأى حكى لمن لم ير عما شاهده بفخر فانتشرت الفرحة بينهم.

نفذنا المهمة بكل ثبات، وكل يوم نخرج بعيدًا عن الميناء لترتفع الغواصة لسطح البحر كي يتم شحن بطاريتها ويخرج الجنود والضباط للسطح يدخنون بثقة وكأنهم ملكوا البحر كله بما نقوم به.

أعتقد أن الشعور لا يكفي لوصف القوة الهائلة التي انتابتنا في تلك الأيام، فهم الجميع أن أسطورة دفاعات (إسرائيل) البحرية كانت مجرد

ثرثرة فارغة وأنها دولة تشق طريقها ببطء في حروب البحر بل إننا نتفوق عليها بخبرة قديمة في هذه المنطقة بالذات.

انتهت مهلة المهمة وابتعدنا عن ميناء (حيفا) وعدنا لطريقنا مرة أخرى لميناء الأسكندرية، وقبل أن نصل للمياة الإقليمية بقليل جائني (يحيى) جريًا يقول:

-" العريف (طه) لقط حد بيبعت نبضات (الأزدك) "

التقاط نبضات إزدك مرسلة تعني أن هناك قطعة بحرية معادية اكتشفت وجودنا، أمرت باتخاذ مراكز قتال ورفعت البيرسكوب، في نفس اللحظة جائني خبر بأن القطعة البحرية قطعت مسافة كبيرة وأصبحت في وضع اشتباك.

على البيرسكوب رأيت لانش طوربيد إسرائيلي، أمسكت الميكروفون واتصلت بإبراهيم أخبره بتجهيز أنبوب الطوربيد للإطلاق.

ظهر اللانش أمامي على البيرسكوب ورأيت الخط المميز الذي يتركه ذيل الطوربيد يتجه ناحية الغواصة .. لا وقت للغطس السريع فاللانش سيستخدم قنابل الأعماق قبل أن يتم الغطس.

لا حل سوى المناورة من الطوربيد، قال (إبراهيم) فجأة في اللاسلكي:

-" فوهة أنبوب الطوربيد مش راضية تفتح من عندي "

يجب أن يمتلئ أنبوب الطوربيد بالماء كي يعادل الضغط داخل الأنبوب حتى ينطلق الطوربيد لهدفه، وباب فوهة الطوربيد الملاصق للمياة إن لم يفتح وانطلق الطوربيد ينفجر داخل الغواصة.

-" حاول بأي طريقة، شِدّ جامد "

قلتها بسرعة ثم أعطيت أوامري بإدارة دفة الغواصة بسرعة مع الانخفاض 5 أمتار، راقبت الطوربيد وهو يقترب أكثر وصوت (إبراهيم) يأتيني مفزوعًا:

-" مش راضية يا فندم، أنا هَخَرَّج الطوربيد "

جاء مع صوت (إبراهيم) صوت آخر يقول عبارة:

-" إسمع كلامي "

مر الطوربيد من فوق الغواصة تمامًا ونحن نسمع صوت رَفَّاسَهُ، بينما أصرخ أنا في (إبراهيم)

-" إتصَرَّف "

اقترب اللنش أكثر وطوربيد جديد يشق البحر متجهًا لنا لكنه لن يستطع إصابتنا لانحرافه منذ انطلاقه .. المشكلة أن اللانش سيستخدم قنابل الأعماق الآن.

أعطيت أوامر بالارتفاع والاقتراب من السطح مع تحريك مقدمة الغواصة بدرجة معينة، فجأة ارتفع صوت (إبراهيم) يقول بنبرة غريبة:

-" الطوربيد جاهز للإنطلاق يا فندم "

حسبت السرعة التقريبية للانش وطلبت توجيه الدفة لنقطة سيتواجد عندها اللانش بعد 10 ثوان.

-" إطلق "

جاء صوت (إبراهيم) بنفس النبرة الغريبة التي تشبه البكاء يقول:

-" تم الإطلاق "

توقف الزمن وأنا أتابع اللانش في مساره، حاول قائد اللانش أن يبطئ السرعة ليقوم بمناورة ليهرب من الطوربيد لكن سرعته كانت أزيد من أن يتم الأمر كما حاول .. اصطدم الطوربيد وارتفعت ألسنة اللهب والدخان في عنان السماء، مع الكثير من الانفجارات داخل اللانش في الغالب لأنه يحمل قنابل الأعماق والطوربيدات، صرخت أنا:

-" تم تدمير الهدف المعادي "

هلل الجميع وتسارع الضباط داخل الكابينة لمشاهدة الحطام من البيرسكوب، أعطيت تعليمات الاتجاه لداخل مياهنا الإقليمية وأنا أمسح العرق الغزير الذي تكون على جبهتي.

بقيت ساعات قليلة على العودة للميناء، طلبت مسح راداري جديد لأتأكد من عدم وجود قطع بحرية قريبة.

تذكرت صوت (إبراهيم) فذهبت لغرفة الطوربيد مرورًا ببعض الجنود الفرحين، فتحت باب الغرفة ودخلت لأجد (إبراهيم) يقف مستندًا على أنبوب الطوربيد يبكي.

سمع خطواتي فنظر لي محاولًا تمالك نفسه وهو يصلب قامته

-" إيه اللي حصل؟ "

من وسط دموعه قال بصوتٍ مُتَهَدِّج:

-" (مصطفى) كان واقف معايا قبل الاشتباك، ولما طلبت مني تجهيز الطوربيد الباب الخارجي علق، حاولت كتير لحد ما قالي إنه لازم يدخل جوه الأنبوب ويزق الباب برجله علشان التروس معلقة ومحتاجة إنه يزقه برجليه"

توقف ثوانٍ ليأخذ أنفاسه ثم أكمل:

-" رفضت لكنه صمم وفتح الباب ودخل ومعاه الطوربيد، أنا حركت الباب من عندي وانفتح فعلًا لحد ما الانبوب اتملى مية وأطلقت زي ما أمرتني "

جلست على الأرض مستندًا للحائط بظهري، كيف حدث هذا ! كيف ضحى بنفسه بهذه الطريقة الشنيعة، وضعت رأسي بين كفي أحاول كتم مشاعري .. ما الذي سأقوله لأهله وكيف سأنقل الخبر لزملاءه.

نهضت بصعوبة وقلت:

-" ما تقولش لحد من زمايلك على اللي حصل لحد ما نرجع المينا "

تركته مغادرًا الغرفة لكن (إبراهيم) قال:

-" لو سأل عليه حد؟"

-" محدش هيلحق يسأل، الفرحة هتنسيهم كل حاجة "

غادرت الغرفة وعدت لكابينة القيادة أتابع إحداثيات الوصول، مرت ساعة لاحظ بعدها (يحيى) وجومي

-" مالك يا قومندان؟ "

-" مفيش، مركز علشان الرجوع "

-" طب ما تخش تريح و... "

قطع جندي آتى لاهثًا وهو يقول:

-" يا فندم فيه حاجة غريبة بتحصل في الغواصة "

نظرت له مستفسرًا ليكمل كلامه:

-" أنا وزمايل كتير ليا شوفنا حد ظهر لينا لابس لبس المطبخ "

خاطبه (يحي) بعصبية:

-" فين المشكلة يعني؟ "

-" اختفى فجأة "

-" نعم يا خويا؟ "

لم يتكلم الجندي ونظر أرضًا وهو يقول:

-" كل واحد فينا شافه يا فندم، بيظهر ويختفي فجأة وفي كل مكان، ولو حد كلمه ما بيردش "

نهضت أنا وأمرته بالانصراف، قمت بالمرور على العنابر والغرف أنظر للجنود، لأول مرة منذ خرجنا في مهمتنا أرى الفزع يرتسم على وجوههم، لم أتكلم ولم يتكلم أحدهم أيضًا.

عدت لكابينتي الخاصة أجلس على الفراش الضيق عندما شاهدت (مصطفى) يدخل من الباب مبتسمًا.

شهقت وأنا أرمش بعيني لأتأكد مما أرى .. فتح فمه وقال:

-" شكرًا على الفرصة "

اختفى فجأة من أمامي كأنما لم يكن.

***

اقتربت الغواصة من حوض الميناء، وقد خرج جميع من بها إلى السطح، شعرت بأنهم يهربون من المكوث داخلها ورؤية (مصطفى) يتحرك بينهم، وقف على الميناء رئيس الشعبة وقائد البحرية والعديد من اللواءات يلوحون لنا.

وسط الواقفون على الغواصة وجدت الطباخ الرئيسي للسفينة فناديته وقلت:

-" عايز منك عنوان بيت (مصطفى) المساعد بتاعك علشان عايز أزور أهله "

رفع الطباخ حاجبيه دهشة وهو يقول:

-" ما كنش عندي مساعد في المهمة دي يا فندم، (مصطفى) مين؟"

-" مصطفى عرفة "

تأمل الطباخ في وجهي لثوانٍ قبل أن يقول:

-" لو حضرتك تقصد (مصطفى) اللي اتنقل من جندي طوربيد للمطبخ فده مات على الغواصة دي السنة اللي فاتت لما انفجرت أنبوبة الغاز في المطبخ .. الله يرحمه "

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

في حضرة الجان

obeikan.com

إهداء

إلى تلك الجدة التي حملت حفيدها الرضيع كثير البكاء
أمام مقام (سيف الدين المغربي) .. أتذكرك في كل وقت .

obeikan.com

obeikan.com

سألتهم إلى أين؟ فقالوا إلى بيت الله، إلى جوار الله، إلى الله .. وهم لا يعلمون بأن الله معهم ومنهم وفيهم

(درويش مجهول)

obeikan.com

obeikan.com

(1)

2005

الثانوية العامة مؤلمة، يتوقف عندها الزمن ويسير كل شيء ببطء، وخاصة المذاكرة التي أكرهها، لست وحدي الذي يكرهها لكن الجميع، اللهم إلا فئة قليلة مصابة بالتخلف العقلي من زملائي الذين يسيرون بحركة آلية ويتكلمون بشكل عجيب عنها، يعشقونها.

إن كان البعض يطلق عليهم الدحيحة فأُطلق عليهم الفضائيين، وهم يطلقون علينا البلطجية، يروي كل منا على الفريق الآخر الأساطير، وكل منا يتوقع للثاني نهاية مأساوية عقابًا له على غباءه.

حتى أننا نطلق على بعضنا أسماء ساخرة، ولذلك علق بي الاسم الذي أطلقه علي أحد هؤلاء الدحيحة _الذي ضربته قديمًا_ وإن كان اسمًا غريبًا فلم أشغل له بالًا وقتها لكنه علق بي حتى أصبح اسمًا مشهورًا يتحدث عنه الجميع بفخر عند ذكر إحدى معاركي مع طلاب المدارس الأخرى .. (مصطفى شاورمة).

أطلق علي لقب (شاورمة) لأنني كنت أكلها يوميًا بانتظام من أيام الإعدادي، ولأننا كنا زملاء في نفس المدرسة الإعدادية وانتقلنا جميعًا لمدرسة القناطر الثانوية فقد خرج علي هذا الاسم ورددده الجميع في البداية بسخرية ثم أصبح أهم من اسم والدي الحقيقي.

أما بقية شلتي فتنوعت أسماءهم التي أطلقها عليهم الدحيحة بين (حمادة صرصار) و(محسن نملة) و(طه ضاضا).

عندما وصلنا للصف الثالث أصبح طلاب الصف الأول دائمي ذكر معاركنا مع المدارس الأخرى وأسمائنا تجري على ألسنتهم كأنهم يروون قصص أبو زيد الهلالي وعلي الزيبق.

مرة يقول أحدهم أن (محسن نملة) قفز لسور المدرسة المجاورة في فترة الفسحة وهو يحمل (سافوريا) وفي رواية أخرى سيف حقيقي، وأخذ يضرب بعض من تحرشوا بحبيبته عند موقف السيارات، حتى أنه أصاب عشرون فردًا وفي بعض الحكايات الأخرى أصاب ثلاثون من الطلاب وخمسة من المدرسين.

ومرة حكى أحدهم أنه شاهدني أدخل لمكتب تصوير بقرية (شلقان) وأحطم كومبيوتر بضربة من يدي العارية ثم أحمل صاحب المكتب وأحشر رأسه بين ماكينة تصوير لأنه يدين لي بعشرة جنيهات.

كنا نسمع بحكمة وشموخ ولا نعلق بالنفي أو الإيجاب تاركين شهرتنا تزداد، حتى ولو كانت كلها من نسج خيالهم، لكن من ذا الذي يرفض دعاية مجانية تجذب الفتيات وتكسب الهيبة بين الجميع.

برغم هذا فقد تعاركت كثيرًا، ليس بتلك الطريقة الأسطورية التي أوصف بها بالطبع، وانتصرت كثيرًا لأحمي سمعتي كي أظل مصنفًا وسط أقوياء مدرستنا.

وكي تظل تلك الهالة المخيفة حولي تبعد عني هؤلاء الفضائيين وتذكرهم دائمًا بخيبتهم في خوض المعارك.

كما هي الحياة الواقعية في تصنيف الأقوياء والضعفاء نفوذًا كانت مدرستنا تعتمد على هذا التصنيف، إلا من بعض الحالات الشاذة، مثل صديقي الذي لا أتحدث معه كثيرًا (صالح).

ينتمي للفضائيين بمشيته المهتزة الخجولة ونظرته الدائمة للأرض وملابسه المهندمة التي لا تدل على غنىٍ لكن تدل على نظافة واهتمام زائد.

كل من في المدرسة يعرف أن (صالح) في حمايتي الشخصية، منذ أن رأيته لأول مرة في الصف الأول الثانوي وشعرت بضعفه وخوفه ممن حوله وقد قررت أن أزيح عنه ألسنة شلتي ويد كل من تسول له نفسه أن يتعارك معه، لم يعجبه هذا الشعور في البداية، شعور يؤكد ضعفه واعتماده على قوتي.

لكنه لم يعترض في نفس الوقت، على من يشبهه أطلقنا الأسماء الكوميدية إلا هو، من فكر في نعته باسمًا ضاحكًا جعلته يبتلعه مرة أخرى، من تخيل استطاعة ضربه قتلت تخيله في مهده.

سألني الكثير سبب هذه الحماية الخاصة برغم أنني لا أتبادل معه إلا السلام أو عبارة على الأكثر كل بضعة أيام، فكان ردي الدائم:

-" عشان واد طيب بجد، ما يستاهلش يتهدل "

لكن لم تكن تلك الإجابة الحقيقية، حتى الحقيقة لم أتبينها تفصيلًا سوى أنني أفعل ذلك مكفرًا عن ذنب تجبري مع بقية من هم على شاكلته، وربما لأنني كنت مثله في المرحلة الابتدائية أتعرض للتحرش والضرب والإهانة قبل أن أختار الترقي لفئة المعتدين في الإعدادية.

وربما كنت مثل من يرتكب الذنب ثم يتوقف عنه عند سماع الأذان ويعود لتكملته بعد انتهاءه عسى أن يغفر له في يوم من الأيام.

المهم أنني لم أكن أعرف عنه سوى اسمه ومكان إقامته في منطقة (باسوس) التي لم أزرها إلا متعاركًا مع أحد قاطنيها، لكني أعرف شوارعها جيدًا لأنني أسكن بالقرب منها مسافة نصف ساعة، بقرية (الخرقانية).

قبل الامتحانات بشهرين ساد عرف بين الطلبة أن يحاولوا التغيب عن الحضور للتفرغ للمذاكرة وللحفظ في منازلهم، المنتمين لفئة (الأدبي) مثلي لا يحضر أحد سوى أنا وشلتي لنهرب بعد بدء اليوم الدراسي ونذهب للقهوة أو للعب، أما فئة (العلمي) فيحضر القليل وكان من بينهم (صالح) للمراجعة مع المدرسين.

مر أسبوع ولم أر (صالح) صباح كل يوم في الطابور، اليوم لاحظت وتذكرت مرور الأيام، قبل صعود الطابور سألت أحد الفضائيين عنه فأجابني باحترام أنه تعرض لحمى ويلزم الفراش منذ فترة.

طلبت رقم هاتفه المحمول فعرفت أنه لا يحمل واحدًا .. بعد صعودنا للفصول دخلت لفصله وسألت الجميع عن هاتف منزله حتى أخبرني أحدهم فسجلته على هاتفي المحمول.

قضيت يومي مع الشلة على أحد المقاهي نشاهد المصارعة التي كانت تذاع في ذلك الوقت بكثرة وندخن معسل السلوم، ذهبنا بعدها لدرس تاريخ ثم تبعناه بدرس لغة إنجليزية، وفي النهاية انفصلت عنهم عائدًا لمنزلي لآكل.

طلبت (صالح) على الهاتف فردَّت عليَّ أمه

-" ممكن أكلم (صالح)؟ "

-" مين معايا؟ "

-" أنا (مصطفى) زميله في المدرسة "

-" أهلًا يا حبيبي، معلش هو تعبان شوية ولسه نايم من شوية "

-" طب ممكن أجي أزوره في البيت؟ "

تهللت أسارير أمه وهي ترد عليّ:

-" تشرف يا حبيبي، تعالى في أي وقت دا أكيد هيفرح أوي "

-" طب أنا هكون عنده قبل العشا، بس أنا عارف المنطقة لكن معرفش بيته فين بالظبط؟ "

-" تعرف أول البلد؟ "

-" أه "

-" إسأل على صيدلية د/محمد، احنا في نفس البيت الدور التالت "

-" شكرًا لحضرتك "

أنهيت المكالمة وأنا أقول لنفسي ما الذي جعلني أتهور وأنوي زيارته؟ كان يكفي الاتصال لكن لساني تحرك من تلقاء من نفسه ليوقعني بذلك، تناولت طعامي وأنا أخطط للذهاب له وإلغاء كل ما كنت سأقوم به الليلة مع أصدقائي.

نزلت من المنزل واشتريت خمسة سجائر كيلوباترا لتكفي ليلتي، وجدت ميكروباص ينادي على (باسوس) فقفزت داخله في ثوانٍ.

بمجرد وصولي بحثت بعيني جيدًا عَلّي أعثر على فكهاني، سرت قليلًا حتى وجدته لأحضر بعض الفاكهة لصالح، طالما سأقوم بواجب الزيارة فيجب أن يكون مكتملًا.

بعد دقائق كنت أقف في الطابق الثالث بمنزل (صالح) أنظر لأي شقة سأطرق بابها.

جربت حظي بإحداها فكانت شقة (صالح)، طالعتني أمه مبتسمة بعدما عرفت أنني من كنت أحدثها هاتفيًا.

-" اتفضل يابني، ثواني أندهولك، ليه كلفت نفسك بس "

قالتها بنبرة ودودة وهي تشير لي لأدخل لغرفة الصالون، جلست على الأريكة أتأمل صورة كبيرة علقت لرجل يشبه صالح وشريطة سوداء تزين جانبها .. لم أكن أعرف أنه يتيم الأب مثلي !

لم تمر ثوانٍ حتى وجدت (صالح) يخرج من الغرفة وهو يفتح ذراعيه مرحبًا بي بحرارة لم أتوقعها

-" نورتني يا (مصطفى) "

قالها وهو يحتضنني بود، ربت على ظهره وأنا أقول مرتبكًا:

-" ألف سلامة عليك .. صحتك عاملة إيه دلوقتي؟ "

أجلسني وجلس على مقعد قريب وهو يقول:

-" بقيت كويس لما شوفتك "

-" الحمد لله "

دخلت أمه قائلة:

-" تحب تشرب شاي ولا حاجة ساقعة أحسن؟ "

-" لا يا ماما أنا هاخد (مصطفى) وننزل "

ابتسمت الأم وهي تقول:

-" بسم الله ماشاء الله يا (مصطفى)، دا (صالح) الدم رجع لوشه والعيا خرج من جتته لما شافك "

نهض (صالح) وهو يقول:

-" ثواني هغير واجيلك "

خرج الاثنان وأنا أرفع حاجبي من الدهشة، هل الحمى أخذت بعقله لهذه الدرجة؟ إنه يعاملني كأنني صديق قديم افتقد وجوده .. لم أكن موجودًا في حياته من الأصل، أو ربما لم أتوقع أن يأنس بوجودي بهذه الطريقة.

دقائق وعاد يرتدي قميصًا وسروالًا وقد صفف شعره والابتسامة الودودة لم تفارق فمه !، نادى على أمه قائلًا:

-" إحنا هنقعد على القهوة شوية ونروح بعديها للشيخ (مرزوق) "

جاء صوت أمه يقول:

-" براحتك يا حبيبي "

لم أتخيل أن يجلس مثلي على المقهى ولم أتوقع أن يخبر أمه بهذه البساطة !، أنا وأصدقائي من رابع المستحيلات أن يعرف ذوينا عن جلوسنا على المقهى .. هل أحلم؟

***

(2)

نزلنا نسير بين الحارات والشوارع التي امتلأت بالمصانع وهو يلقي السلام على بعض الجالسين من آن لآخر فيردون عليه بأدب واحترام، حتى قال ل:

-" تعرف إن انت الوحيد اللي سألت عليا من المدرسة "

-" بس زمايلك في الفصل عارفين، دول هما اللي قالولي "

-" عارفين بس مشغولين في المذاكرة "

-" الله يكون في عونهم "

قلتها ساخرًا لكن بلا أي تعبير على وجهي، لكنه ضحك وقال:

-" الندالة علامة مسجلة "

نظرت له وأبطأت في السير أتأمله لألاحظ الفرق لأول مرة، طريقة حديثه ومشيته مختلفة عن طريقته في المدرسة، يسير واثقًا مرفوع الرأس متحدثًا ببساطة؟

-" ما انت بتهزر زينا أهو يا (صالح)، أمال مالك قافش في المدرسة كدة ليه؟ "

ضحك بصوتٍ عالٍ وقال:

obeikan.com

-" مش عارف .. يمكن علشان بتكسف من نظرات البنات في المدرسة، أو علشان بحس إني مجبر على إني أكون الولد الشاطر علشان مستقبلي .. أو يمكن ما بحبش المدرسة أساسًا "

توقفنا عند مقهى يخرج مقاعده على الطريق، خرج من داخله القهوجي يصافح (صالح) بحرارة ويسأله عن مرضه، رفع بعض الجالسين على المقاعد أيديهم تحية له أيضًا وهم ينادون على اسمه يسبقه كلمة (أستاذ) وهو يرفع يده محييًا كل منهم باسمه.

شعرت بتبدل الأدوار بيننا كأنه هو الشاب الضائع وأنا الخجول الدحيح أو الفضائي الذي يشعر بعدم الارتياح بوجوده وسط الفاسدين.

جلسنا على مقعدين وأنا أقول:

-" بقى إنت ما بتحبش المدرسة !، أمال أنا أبقى إيه "

أخرجت سيجارة من جيبي بارتباك وأنا أقول:

-" هشرب سيجارة .. ولا هتتضايق من الدخان؟ "

-" اشرب براحتك "

ابتسمت وأنا أشعلها بعود ثقاب وأقول ساخرًا:

-" تاخدلك نفس؟ "

-" ما بدخنش سجاير، لكن بشرب معسل "

obeikan.com

نادى على القهوجي وهو يخبره بأن يحضر معسل القص

-" هي دي الكاميرا الخفية ولا إيه؟ "

قلتها والدخان يخرج من فمي كشلال بعدما فتحته مندهشًا

-" هتشرب إيه؟ "

طلبت شاي واكتفى هو بالمعسل

-" انت بتشرب شيشة كده عادي؟ طب مش خايف في البيت يعرفوا عندك؟ "

-" ماما عارفة "

-" نعم يا خويا؟ "

جاء القهوجي بالشيشة فوضع (صالح) المبسم بفمه وجذب بضعة أنفاس بتركيز واسترخاء وأنا أشاهده كأنني طفل يرى عملية التدخين لأول مرة، قال هو ببساطة:

-" أمي قالتلي زمان لو فكرت تدخن قولي، بلاش أعرف من حد غريب، فلما جربت الشيشة من سنة وعجبتني قلتلها على طول "

-" طبعًا أكلت العلقة المتينة "

obeikan.com

-" لأ خالص .. قالتلي إني ما أشربش أكتر من مرة في الأسبوع ولو زاد أوي اشرب مرتين وأقولها، ومن ساعتها وانا بشرب كل أسبوع مرة بانتظام"

-" إنت بتهزر؟ "

-" بتكلم بجد والله .. إيه المشكلة يعني "

جاء القهوجي بالشاي فجذبت نفسًا من السيجارة التي نسيتها وقلت بخيبة أمل:

-" أنا بصراحة كنت فاكرك أحسن مني وعندك إرادة إنك تبطل الدخان "

-" محدش أحسن من حد، ومين قالك إني عايز أبطل؟ أنا مستريح كده، هو انت مش مستريح وانت بتشرب سجاير برضه؟ "

نظرت للسيجارة ثم له وأنا أقول:

-" مش عارف "

-" مش عارف؟ أمال بتدخن ليه؟ "

ما هذا السؤال؟ كيف لم أفكر هل أستمتع بالتدخين أم أدخنه لتسلية الوقت فقط؟ اتخذت فجأة موقف المهاجم وأنا أقول:

-" بس الدخان غلط "

ابتسم وهو يسحب نفسًا طويلًا وصوت قرقرة الشيشة يعلو ثم أخرج النفس براحة وهو يقول:

-" كل لحمة كتير يجيلك نقرص، اشرب بيبسي كل يوم تدخل في هشاشة العظام، كل شوية فراخ مقلية مع بطاطس محمرة وانت يجيلك القلب .. العب رياضة كل يوم وما تدخنش وابعد عن الستات وفي الآخر يجيلك سرطان الرئة صدفة .. الحاجات في الدنيا نسبية يا (مصطفى)، انت لازم تعمل كل حاجة بتحبها بس بعقل، يعني لو السيجارة اللي في إيدك مش مريحاك إرميها، أما لو عايزها فاشربها باستمتاع وما تنفخش الدخان على الفاضي "

كلماته ضربت منطقي البدائي في مقتل، قلت عبارة ليس لها معنى:

-" بس برضه الدخان غلط "

-" ما كلنا بنغلط، دا احنا بشر ولا إيه؟"

انتهت السيجارة من يدي فرميتها وأنا أفكر في مبدأه الغريب، حتى جائني رد يمكنني مواجهته به فقلت متحفزًا:

-" إنت كنت بتقول لو بعدت عن كل حاجة ممكن يجيلك سرطان الرئة صدفة، بس ساعتها مش هتكون صدفة، أكيد ربنا هو اللي عمل فيك كدة علشان إنت عملت مصيبة"

-" ما تدخلش ربنا في الأمراض، احنا اللي بنجيبها لنفسنا واحنا اللي بنعالجها، ربنا أعلى من إنه يبعتلك مرض علشان ارتكبت ذنب، الذنوب حسابها في الأخرة، أما الدنيا فليها معادلتها "

بصراحة لا أعرف لِمَ صرخت فيه:

-" استغفر الله يا أخي .. إنت بتقول كلام كفر كده، انت ما تعرفش إن كل حاجة بتعملها هتترد لأهلك، لو عاكست واحدة اختك هتتعاكس، لو زعقت في أمك ابنك هيزعق لمراتك لما تكبر "

ابتسم وهو يسحب الأنفاس ويقول بهدوء:

-" مش بقولك إحنا كدة بندخل ربنا في حاجات غريبة، (لا تزر وازرة وزر أخرى)، يعني إنت مقتنع إنك لو اغتصبت واحدة يبقى أختك حد هيغتصبها؟ طب اختك ذنبها إيه؟ وازاي هتتحاسب على الاغتصاب ده يوم القيامة؟ "

-" انت بتجيب الكلام ده منين؟ "

قلتها غاضبًا فرد:

-" من شيخي "

-" شيخك؟ انت بتدرس الدين؟ "

-" مش بالظبط، بس كل مريد من الصوفية ليه شيخ "

-" يعني إيه صوفية؟ "

-" دا حوار كبير أوي "

-" طب والشيخ ده بيفتي على أساس إيه؟ "

-" لا هو ما بيفتنيش، هو بس بيرشدني للدخول في التصوف وأنا بَدَوَّر لوحدي على الإجابات "

-" لا مؤاخذة بس كلامك يضحك "

قلتها وأنا أخرج سيجارة أخرى ثم فكرت أنني لا أشعر باحتياج لها فعدلت عن الفكرة، بينما قال هو:

-" طب تعرف بقى إن شيخي زارني امبارح في البيت وقاللي إن النهاردة هيزورني قبل صلاة العشا إنسان طيب جدًا وصديق مخلص وطلب مني أجيبه معايا لحضرة هيعملها النهاردة بعد الصلاة "

اهتززت لثوانٍ من تأثير كلماته وقلت مشدوهًا:

-" انت بتتكلم بجد؟ "

-" صدقني أنا نفسي اتخضيت لما جيت وما كنتش مصدق نفسي "

-" وإيه اللي عرفه؟ "

-" فيه حاجات ما بنعرفش سبب لها، يعني إنت إمتى قررت تزورني؟ "

-" النهاردة "

-" واشمعنى اخترت النهاردة بالذات؟ "

-" صدفة .. لكن مش ممكن يكون شيخك عارف ميعاد زيارتي، دي تخاريف "

سمعنا صوت المؤذن يؤذن للعشاء فقال (صالح) وهو يترك الشيشة وينهض:

-" سأصلي العشاء في مسجد قريب وأعود لك .. لن أغيب "

كيف لم يطلب مني الذهاب معه؟ هل يخشى إحراجي؟ أم يتوقع أنني لن أصلي؟

-" أنا جاي معاك "

نهضت واستعددت لأحاسب لكنه أخبرني بأننا سنعود ثم أخبر القهوجي أن ينتظرنا، لم أملك إلا أن أتبعه وأنا أحاول تذكر آخر مرة دخلت فيها المسجد بإرادتي لأصلي غير صلاة الجمعة التي أحضرها في آخر خمس دقائق.

خرجنا من الحارات الضيقة إلى شارع رئيسي يطل على ما اعتقدته بحرًا، لكن علمت من (صالح) إنه امتداد للنيل، سرت معه على حافة الشاطئ أرى المياه بجانبي بلا سور أو فاصل.

مررنا بزاوية صغيرة كنت قد تأهبت لدخولها معه لكنه أكمل طريقه صامتًا !، سرنا حتى وصلنا لمسجد صغير يشبه الزاوية لكنه حمل بعض الزخارف البسيطة، كان المسجد يبتعد أمتارًا عن شاطئ النيل لكنني لمحت على الشاطئ مبنى غريب لم أر مثله من قبل.

مبنى مربع التصميم تعلوه قبه امتلأت بزخارف حفر داخلها اسم بالرسم العثماني لم أتبين منه إلا اسم (سيف الدين)، آخر ما التقطته عيناي هو باب مفتوح لهذا المبنى وضوء مصباح يشع من داخله.

دخلت المسجد بجانب (صالح) والحق أنني انتظرت أن أشعر برهبة ما أو خشوعٍ ففوجئت بفراغ مشاعري كأنني أدخل لمنزل عادي؟ هل تبلدت مشاعري لهذه الدرجة التي لا أستشعر فيها بهالة الدخول لبيت عبادة؟ أم أنني تعودت على دخول المساجد تقضية واجب عند صلاة الجمعة حتى فقدت الصلاة معناها عندي؟

توضأت وأنا أقول ساخرًا في نفسي الحمد لله لم أنس كيفية الوضوء وإلا أصبت بالحرج أمام (صالح) والمصلين.

خرجت لساحة المسجد بعدما سبقني (صالح) الذي وجدته يصافح الكثير من الشباب والرجال الذين ارتدوا ملابس موحدة عبارة عن جلباب أبيض وعمامة من نفس اللون، بعضهم يربي شاربه والبعض حليق الوجه والبعض ذو لحية، إلا أحدهم الذي لم يكن مميزًا عنهم ملبسًا إلا أن الجميع كان يصافحه باحترام وأدب زائد وهو يبتسم لهم ويربت على ظهور بعضهم.

لم أر فيه شيئًا زائدًا إلا نظارة طبية عادية، ووجه يحمل ابتسامة دائمة لا تنقطع، هل هذا هو الشيخ الذي حدثني عنه (صالح)؟

كأنه سمع أفكاري فنظر لي وركز نظراته لعيني .. ارتبكت بلا سبب وحاولت الابتسام فلم أستطع وهو يقترب مني ويقول:

-" نورتنا يا (مصطفى) "

-"شكرًا "

-" لو فاضي ياريت تحضر الحضرة معانا بعد الصلاة "

لم أجبه لكن هززت رأسي بلا معنى واضح، فهز رأسه لي محييًا وانصرف يصافح بقية الشباب، أقيمت الصلاة فوجدته يصطف معنا ويخرج أحد الشباب ليؤمنا .. لا أنكر أنني اندهشت من عدم إمامة هذا الشيخ لنا !.

أديت الصلاة بجسدي فقط وعقلي يفكر في هذا الشيخ وهؤلاء الفتية وملابسهم الموحدة، حتى أنني اختلست نظرة جانبية للشيخ أثناء الصلاة عَلّي أرى في صلاته ما يميزه ليحظى بهذا الاحترام فلم أجد.

انتهينا وأنا أحاول تذكر هل سنة العشاء قبل أم بعد الصلاة، لو كانت بعد الصلاة لأديتها لأعفي نفسي من الحرج وسط هذا الجمع المتدين الذي يشعرني بضألتي، لكن حتى لو كانت السنة بعد الصلاة فلا أتذكر عدد ركعاتها.

نهضت وجلست في أحد الأركان محرجًا، نهض البعض يصلي والبعض يتحدث، أشعر بالاغتراب في هذا المكان، ليتني انتظرت (صالح) في المقهى وعفيت نفسي من شعوري الآن الذي أكسبني يأسًا من حياتي الدينية.

سمعت صوتًا منغمًا خافضًا يقول:

-" طرقت باب الرجا والناس قد رقدوا "

نظرت لمصدر الصوت فوجدته أحد أتباع الشيخ جالسًا وبجانبه اثنان يستمعون له وصوته يعلوا قليلًا:

-" طرقت باب الرجا والناس قد رقدوا .. وبت أشكو إلى مولاي ما أجد "

علا صوته أكثر ونظر له البعض وهو يتنغم بصوته الجميل:

-" وقلت يا أملي في كل نائبة .. يا من عليه في كشف الضر أعتمد "

تنفست روحي .. لا أعلم ما معنى هذا لكني شعرت بروحي لأول مرة وكأنها كائن حي يتنفس داخلي من هذا الصوت وكلماته

-" أشكو إليك أمورًا أنت أعلمها .. مالي على حملها صبر ولا جلد "

سرت ارتعاشة خفيفة بفقرات ظهري

-" وقد بسطتُ يدي بالذل مفتقرًا إليك .. إليك يا خير من مدت إليه يد .. فلا تردها يا رب خائبة .. فبحر جودك يروي كل من يردُ "

هنأه البعض ومدحه الشيخ الذي نهض وسار حتى وقف أمامي فقمت بسرعة لكنه هدأني وأجلسني قائلًا:

-" إحنا هنعمل حضرة ذكر دلوقت، اقعد واتفرج ولو حبيت تدخل تذكر ربنا معانا ادخل، المهم إنك لو نويت الذكر ما تحركش لسانك بس، اذكر بقلبك، دور على صوت روحك وخليه ينطق "

لم أفهم كيف أذكر بقلبي، أكره الأحاديث الفلسفية التي يتوقع الناس أن أفهمهم منها، لكني هززت رأسي بمعنى نعم وأنا أراه يبتعد عني وهو يقول لأتباعه:

-" حضرة الله يا أحباب الله "

جلس الشيخ وسط المسجد تمامًا وبعض المصلين يغادرون والبعض اقترب من الشيخ وجلس حوله، كانت ملابسهم وأعمارهم مختلفة هذه المرة، لم يسألوا الشيخ ولم يتكلموا معه لكنهم اتخذوا مواقعهم في شكل شبه دائري حوله وبعض أتباعه يجلسون بجانبهم مكملين الحلقة حول الشيخ بجانبهم (صالح).

نظرت فوجدت بعض الرجال يجلسون مبتعدين عن الحلقة ينظرون لها بهيبة، قال الشيخ:

-" ببركة مولانا العارف بالله سيدي (سيف الدين المغربي) ومقامه ومسجده نبدأ حضرتنا بتصفية نفوسنا .. صفوا قلوبكم من زوائل الدنيا ومشاكلها وتأهبوا لحضور المسافر (سيف الدين) بينكم "

إذن فالمبنى القريب من المسجد هو مقام (سيف الدين) هذا، لكن ما معنى المسافر وكيف سيحضر؟ صمت الجميع وأغمض بعضهم عينه فخطوت على ركبتي بهدوء وأنا أقترب من أحد الرجال الجالسين بعيدًا عن الحضرة ينظر لها منبهرًا، أعتقد أن عمره لا يتخطى الثلاثين، رأني أقترب منه وأقول هامسًا:

-" سلام عليكم، هما هيعملوا إيه؟ "

همس لي وهو ينظر لهم:

-" حضرة، إنت أول مرة تيجي والا إيه؟ "

-" أنا مش من باسوس أصلًا "

-" اسمك إيه؟ "

-" (مصطفى) "

-" أهلًا يا (مصطفى) .. أنا أخوك (مصطفى عبد الرحمن) "

ابتسمت وقد شعرت بالألفة معه وحديثنا يدور همسًا وأنا أقول:

-" (مصطفى) برضو، بصرة "

فجأة قال الشيخ:

obeikan.com

-" نبدأ بالصلاة على المختار .. اللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية ولمعة القبضة الرحمانية وأفضل الخليقة الإنسانية ومعدن الأسرار الربانية وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السنية والرتبة العلية، من اندرج النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه .. وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت وأَمَتَّ وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت "

رددت الحلقة من حوله عبارة واحدة:

-" اللهم صَلِّ على (محمدٍ) وعلى آله وصحبه "

كانوا يرددون العبارة فتختلط أصواتهم بعضها ببعض لكن الشيخ طرق بيده على الأرض فرددت الدائرة بعد طرقته العبارة، طرق مرة أخرى فرددوا مرة ثانية وانتظم صوتهم، كأنه يضبط إيقاع أصواتهم على نغمة واحدة.

مِلتُ على (مصطفى) وقلت:

-" مين المسافر ده اللي مستنيينه ييجي "

ابتسم ابتسامة أعتقد أنها ساخرة وهو يقول همسًا:

-" شوفت المقام اللي برا ده؟ ده مقام سيدي سيف، بيقولوا إنه بيحضر في حضراتهم في قلوبهم ويديهم المدد "

- " يديهم المدد؟ "

-" أصحاب العقول في راحة "

انفتح فمي مبتسمًا بلا قصد وأنا أقول له:

-" طالما الناس دي فساكونيا كدة إيه اللي مقعدنا هنا؟ "

ابتسم هو أيضًا لعبارتي وقال:

-" بصراحة أنا بحب أتفرج على حضراتهم، فيه ذكر لله جميل أوي، وساعات أذكر معاهم من بعيد لبعيد "

طرق الشيخ فجأة ثلاثة طرقات فانتبهت له وأنا أراه يتنفس بعمق مغمضًا عينيه ويقول خاشعًا:

-" الله "

طرق بيده فردد من حوله:

-" الله "

أغمض (مصطفى) الجالس بجواري عينيه واعتدل ظهره وهو يردد معهم محركًا شفتيه بلا صوت .. تنفست روحي للمرة الثانية وصوتهم يتنغم في نغمة واحدة هادئة كأنهم يخرجون أرواحهم وهم يذكرون.

على صوتهم لكنه لم يزعجني، تخيلت الحضرة كما أراها في الأفلام يصرخون ويتمايلون يمينًا ويسارًا لكني اكتشفت معنى جديدًا منهم.

هل جسدي يرتعش طربًا لهذا الصوت أم أن الإيحاء قد ملأ عقلي؟ .. نعم أرتعش من داخلي، خاطر أخبرني بأن روحي هي التي ترتعش .. تهتز وتتنفس وكأنها تطلب الخروج.

وجدت نفسي مدفوعًا بلا إرادة إلى إغلاق عيني وترديد كلمة (الله)، نزلت علي سكينة زادت من ارتعاش روحي .. أصواتهم تدخل لأذني فتضغط على أوتار روحي تزيدها اهتزازًا، وفمي يتحرك لكن روحي فائرة بجسدي هي التي تردد .. (الله) .. (الله).

فقدت اتزاني ومال رأسي إلى الوراء .. لم أبذل مجهودًا لأعتدل، تركت نفسي مستمتعًا كأنني أغرق في بحر الأصوات، هل رأسي هي التي تميل للوراء أم روحي؟

انقبض قلبي فجأة ففتحت عيني .. لست في المسجد ولا أجلس متربعًا .. لكنني أقف أمام منزل من طابقين وحولي عشرات الناس بملابس غريبة !

***

obeikan.com

(3)

ما هذا الجنون؟ أين الشيخ والأتباع والذاكرين؟ تلفت حولي لأرى التجمع الغريب من هؤلاء الناس الذين يرتدون الجلاليب والعمائم وأغطية الرأس الغريبة مختلفة الألوان، يقفون حول هذا المنزل يرددون كلامًا مختلفًا، ينشد بعضهم والآخر يصرخ مناديًا يقول:

-" شيء لله "

أين أنا؟ وما هذه الملابس التي أرتديها؟ جلباب أسود وعباءة سوداء وعمامة على رأسي !! وأنتعل حذاءًا غريب الشكل، نظرت للناس مرة أخرى عَلِّي أفهم وصوت إنشاد مجموعة منهم يأتي قويًا لأذني:

-"احذر يا صاحِ وكن وقرًا .. وخذ الميثاق على الفقرا .. واسلك يا صاحِ بمنهجهم وبحضرتهم خيرًا سترى "

صوتهم مخيف وهو يتغنى بسرعة

-" الزم في حضرتهم أدبًا .. تلقى السادات مع الأمرا .. من جملتهم شيخي البدوي ويضيء بهيبته قمرا "

البدوي؟ خرجت فتاة من بين الجموع ترتدي ملابس القرى وهي تلف طرحة سوداء على رأسها.. اقتربت من المنزل بجانبي وصرخت:

-" نظرة لله يا (بدوي) "

صوت البعض يذكر الله كذكر الحضرة الذي كنت فيه منذ قليل .. والبعض يأتيني صوته منشدًا متنغمًا:

-" قد جاءته امرأة وبكت .. وحكت ما تم لها وجرى .. قد جاءته امرأة وبكت وحكت ما تم لها وجرى .. قالت ذا ولدي يا بدوي .. قد غاب وما رد الخبر .. فعسى ولعلك يا بدوي تنجي المكروب إذا أسر "

يجب أن أتمالك نفسي، أنا أحلم بالتأكيد، ربما صدمت رأسي في المسجد، أنا الآن بغيبوبة وأحلم.

-" للشيخ انكشفت حالته .. ورآه يردد منكسرًا .. أتراني أعود إلى وطني .. وأُسِرُّ حديثًا مستترًا .. وأفك حديد مسلسلة .. يمناي بقيدٍ واليسرى "

انفتح باب المنزل وخرج رجل بجلباب والناس يصرخون عليه:

-" دَخَّلْنَا نشوفه يا (عبد العال) "

نظر (عبد العال) هذا لي مباشرة وهو يشير لي بالاقتراب ويقول:

-" حمدلله على السلامة، تعالى يا (مصطفى) "

اقتربت بخوف وأنا أسمع المنشدين يكملوا:

-" فرأى بدويًا ملتثمًا .. السهم به يرمي عشرا .. وأزاح القيد وطار به .. ليعود بخير منتصرا "

بمجرد أن اقتربت منه جذبني (عبد العال) لداخل المنزل وأغلق الباب وأصوات الناس تطاردنا تنادي (عبد العال) باسمه وتطلب لقاء البدوي !، لا أعرف شيئًا عن هذا البدوي إلا أنه ولي وله مسجد بطنطا.

تأملت (عبد العال) بسرعة، شارب ولحية وعمامة وجلباب قديم نظيف، مظهره يقول أنه في الخمسين أو أكثر، كيف عرفني؟

-" سيدنا البدوي زعلان من اللي بيعمله الأهالي في مولد النبي كل مرة "

قالها (عبد العال) وهو يعطيني ظهره بينما أتأمل أنا حوش المنزل البسيط الذي امتلأ ببعض المقاعد الخشبية والحصير، كان (عبد العال) يسير إلى سلم في ركن المنزل حين توقف ونظر لي قائلًا:

-" إيه يا (مصطفى) مش هتيجي تقابل البدوي، دا مستنيك من الصبح وعمال يقولنا إنه محتاجلك "

شعرت بدوار فجأة وألم بعيني فأغلقتهما لثوانٍ وعند فتحهما وجدت نفسي أشهق وأنا راقد في ساحة المسجد بباسوس وحولي الذاكرين ينظرون لي والشيخ يضرب بكفه على خدي ويقول:

-" فوق يا (مصطفى) .. مالك؟ "

أردت أن أشرح أنني كنت أحلم بشخص اسمه (عبد العال) سيقابلني بالبدوي فلم تخرج من فمي إلا كلمتين:

-" (عبد العال) .. (البدوي) "

نظروا لبعضهم البعض بدهشة .. اهتزت صورتهم أمامي وشعرت بالدوار وأنني أسقط في بئر سحيق فأغمضت عيني.

فتحتها لأجد نفسي واقفًا و(عبد العال) ينظر لي بدهشة يدعوني لصعود السلم، كيف تم سحبي للحلم مرة أخرى وأكمله من نفس النقطة التي توقفت عندها؟ هل هذا حلم؟ أم شيءٌ آخر؟

-" يللا بسرعة مفيش وقت "

تقدمت بخطوات مرتبكة أصعد السلم المبني من الطين حتى وصلت لنهايته لأجد نفسي على سطح كبير وقف فيه رجال متباينو الأشكال والملابس، بمجرد أن رأوني تجمعوا حولي وكُلًّا منهم يحتضنني مصافحًا

-" حمدلله على سلامتك يا شيخ (مصطفى) "

قالها الجميع بحب وعشرة كأنهم يعرفونني، سمعت صوتًا رخيمًا يقول:

-" يا (وهيب) .. عد إلى (القليوبية) بعد أن تصافح المسافر، فغدًا سيقصدها قاطع طريق ليرهب أهالي (برشوم) "

نظرت لمصدر الصوت وابتعد الجميع عني وهم ينظرون له باحترام، كان رجلًا جالسًا يسند ظهره إلى سور السطح، يرتدي جلبابًا أخضر وعمامة من نفس اللون، ويلف على وجهه لثامًا أحمر يظهر عينيه فقط. كان يمسك مسبحة طويلة ذات حباتٍ سوداء وعلى الحائط بجانبه ترتكن عصا غليظة.

قال أحد الرجال:

-" وأعمل فيه إيه يا أبو الفتيان؟ "

يبدو أن هذا هو (وهيب)، وأعتقد أن هذا الملثم هو البدوي، قلبي يقول هذا، رد عليه قائلًا:

-" أعطه مما أعطاك الله من مال وأكرمه قبل أن يدخل القرية، انزع من قلبه الحقد وازرع موضعه الحب، فلو استقام حاله لأصبح وليًا "

-" زي ما تؤمر يا سيدنا "

نظر البدوي إلى الأرض وقال:

-" فَلْيَعُد كُلٌّ منكم لقريته ولا ينتظر غير (عبد العال) و(علي الكنبراوي) والمسافر "

قالوا جميعًا في نفس واحد:

-" السلام عليك يا شيخنا "

ثم نزلوا جميعًا من السلم حتى أصبح السطح خاويًا إلا من (عبد العال) و(الكنبراوي) الذي ألقيت عليه نظرة جانبية أتأمل ملابسه الغريبة حتى عن الواقفين.

-" نورت (طنطدا) يا (مصطفى) "

قالها البدوي بلين فقلت:

-" أنا جيت هنا إزاي؟ أنا مش فاهم حاجة "

نهض البدوي بخفة وأمسك عصاه يتكئ عليها وهو يعطي ظهره لنا ينظر خارج سور السطح للناس التي جائت أصواتهم بعيدة ينادون باسمه وقال:

-" أصحاب الخطوة لا يسألون عن وسائلهم "

ثم نظر إليَّ وقال:

-" وأنت تخطو بقلبك فيتبعك جسدك يا ولي الله "

-" أنا مش ولي .. وإنت ما جاوبتنيش، أنا بحلم صح؟ "

-" لله جند غالبون .. بكل زمان ومكان .. لكنهم لا يعلمون، هم جند الله يغيثون عباد الله، إن خطوا خطوة طويت الأرض لهم بأمر الله "

حاولت استيعاب جملته ومقصده، هل يتحدث عني كجندي؟

-" إنت تعرف أنا جيت منين؟ "

-" جئت من زمن الله .. من أرض الله "

-" يعني أنا ما بحلمش؟ "

-" الحلم هو الدنيا، والصحو هو الموت، كلنا نحلم ولا نقطع اليقين إلا بموتنا "

-" لو إنت البدوي فأنت ميت في زمني "

نظر (عبد العال) و(الكنبراوي) لي بدهشة بينما شعرت بالبدوي كأنه يبتسم برغم اللثام الذي يخفي وجهه، وقال:

-" إن كنت أنا ميتًا بزمنك فأنت حي في زمني "

صرخت:

-" أنا مش زي ما انت فاكر.. أنا واحد عادي "

-" أنت المختار عبد الله، سيف سلطك الله على أعداءه، إن سلمت روحك للملكوت سبحت فيه قبل أن يقبضها ملاك الموت "

كدت أبكي وأنا أقول:

-" أنا مش فاهم حاجة، المفروض أعمل إيه دلوقت؟ "

-" اختر بين أن تساعد عباد الله وأن تعود إلى ما كنت فيه بأمر الله "

دار رأسي ككل مرة فأغمضت عيني وفتحتها لأجد نفسي أنظر لسقف المسجد بباسوس .. لقد عدت، لقد عدت، كدت أتكلم لولا أنني لاحظت شيئًا غريبًا .. هل أنا قريب من سقف المسجد؟ أنام على ظهري لكني لا أشعر بالأرض من تحتي !

سمعت أصوات متداخلة كأنها تأتي من تحت تصرخ:

-" الله أكبر "

حركت رأسي ناظرًا ليميني فرأيت جداران المسجد، هنا اكتشفت أنني عائم في الهواء !! نظرت لأسفل فوجدت الشيخ والجميع يكبرون ويهللون فرحين وهم ينظرون لي؟

دار رأسي فعدت واقفًا أمام البدوي على السطح، لا أستطيع السيطرة على حركة أنفاسي، تنفست بسرعة وأنا أشعر أنني كنت أعدو منذ ساعة، سمعت صوت (عبد العال) يقول:

-" دا بيسافر ويرجع وهو في مكانه يا سيدنا "

رد عليه البدوي:

-" لا يا (عبد العال)، إن روحه تائهة فقط بين الدخول في الملكوت والمكوث في الدنيا "

عَبَّثُ رئتَيَّ بالهواء وصلبت قامتي وقلت للبدوي:

-" ده مش حلم، أنا هنا معاكم إزاي؟ "

رفع البدوي إصبع سبابة يده للسماء وقال:

-" هو من يعلم سرك وسري "

-" طب أنا عايز أرجع للمكان اللي كنت فيه دلوقت "

-" لا .. لو كنت تريد الرجوع لاخترت البقاء هناك وما جئت لهنا ثانية، أنت في هذا المكان بإرادتك "

-" بس أنا مش عايز أقعد هنا "

-" لكن روحك تطلب البقاء فيما ترفضه نفسك "

-" والحل؟ "

-" الحل أن تكسر نفسك وترضي روحك، فإني أرى روحًا تسبح بين الكون تطلب العلو، ونفسًا تغوص في الشهوة تطلب الدنو، لبي طلب روحك تعد لموضعك "

-" وروحي طالبة إيه مني؟ "

-" أن تذهب لنجدة عباد الله "

-" أنجدهم من إيه؟ "

-" منذ سنين أرسلت الشيخ (عوسج المصري) أحد أتباعي إلى اليمن، وتبعه (علي الكنبراوي) .. وقد علا ذكرهما هناك وأضاء الله على أيديهما قلوب العباد من سائر البقاع، لكن جائني أمس (الكنبراوي) بخبر محزن "

نظر البدوي إلى (الكنبراوي) وقال:

-" أخبره بما حدث "

قال (علي) وهو ينظر لي بأدب:

-" الشيخ (عوسج) اتقتل "

-" إزاي؟ "

-" من شهرين ناس من أهالي بلد اسمها (مهرة) في اليمن استنجدوا بيه لَمَّا سمعوا عن كراماته، قالوا إن في بير قريب منهم في أرض (برهوت) اسمه (قعر جهنم) "

اتسعت عيني فزعًا من نطق الاسم وهو يكمل

-" البير ده دايمًا يشموا منه ريحة وحشة ويسمعوا أصوات خارجة كأن حد بيصرخ، لكنهم اتعلموا من جدودهم ما يقربوش ليه، لحد ما تاه ابن شيخ قبيلة كان في طريقه هو وعيلته وباتوا جنب البير، من ساعتها وهو بيسمع صوت ابنه بينادي عليه من البير"

-" طب محدش رماله حبل وحاول يطلعه؟ "

-" ربطوا واحد بحبل ونزلوه لكنه صرخ ولما شده طلع نصه اللي فوق بس، ورجليه ووسطه مقطوعين "

-" إيه اللي جوه البير ده؟ "

-" بيقولوا إن ملك من الملوك زمان أمر الجن إنها تبنيه علشان يحفظ كنوزه جواه، لكنه مات وفضلت الجن تحرس الكنز .. وعلشان كدة استغاثوا بالشيخ (عوسج) وهو راح ونزل البير واختفى جواه، والأهالي بيقولوا إنه بعد نص يوم لقوا عفريت بيخرج من البير ليه قرون ورجل خروف وعينين مشقوقة وشايل على كتفه جثة الشيخ .. ومن بعدها البير بقى يخرج منه كل يوم حيات وأفاعي سودا وجن وعفاريت، وكل يوم يلاقوا جثة أو جثتين من أهالي (مهرة) من غير سبب "

نظرت للبدوي مفزوعًا وأنا أقول:

-" ليه بيحصل كل ده؟ "

-" الله أعلم "

كل سؤال ألقيه على البدوي لا أجد له إجابة، ما سبب تقديس الناس له إذن ونعته بالولاية؟ .. كأنه سمع أفكاري قال:

-" لست عالمًا بكل شيء يا بني، أنا أحدث الناس بما يفتح الله علي، فإن لم أعرف لا أفتي "

-" وأنا أقدر أحل المصيبة دي إزاي؟ "

-" إن نويت إغاثة أهل (مهرة) فسيكون مددي ومدد الأقدمين تحت طوعك "

-" وليه أنا بالذات؟ "

-" إِنْتَ المسافر في رحاب الله بإذن الله "

-" وازاي أنا جيت هنا "

-" دعوت اليوم وقلت يا عباد الله أغيثوني، ففتح الله عليَّ بصوتٍ يخبرني بمجيء (مصطفى) المسافر بقدرة الله، صاحب الخطوة، عزة الدين وسيفه، روحه هي التي تقدر على رد إغاثة أهل (مهرة)، إن قبل طوي له الزمان والمكان، وإن أبى عاد من حيث ما كان "

لا يمكن أن أكون أنا الذي يتحدث عنه، أنا مجرد طالب ثانوي فاشل أقصى حلمي أن أنجح في مدرستي، ألفاظ مثل طوي الأرض والولاية وإغاثة المظلوم لم تكن بقاموسي من قبل، لقد كانت الصلاة في المسجد ثقيلة على قلبي منذ قليل، فكيف أصبح الآن من الأولياء؟.

-" أرجوك يا شيخ (مصطفى) انجد الناس، إنت اللي في إيدك الحل "

نظرت للأرض أحاول التفكير فلم أستطع، هل أقبل؟ وبعد أن أقبل ما العمل؟

-" قلت لك اقبل وسترى المدد طوع أمرك "

قالها البدوي ردًا على أفكاري فلم أمنع نفسي من الابتسام وقلت:

-" موافق، لكن معرفش هعمل إيه "

اقترب مني البدوي وهو يتكئ على عصاه ويقول:

-" ستذهب الآن لمقابلة (المتولي) كي تتزود لرحلتك "

-" مين (المتولي) ده؟ "

-" قابلته قبلك في شبابي ليزودني في رحلتي إلى (فاطمة بنت بري) "

وقف أمامي تمامًا وأعطاني مسبحته السوداء وهو يقول:

-" إن سألك فرد عليه بقلبك "

أمسك المسبحة وأنا أقول:

-" ما ردتش عليا؟ مين (المتولي)؟ "

-" شيال الحمول "

وضع يده على رأسي وهو يقول:

-" بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، اذهب إلى مبتغاك بأمر الله "

اختفى (البدوي) والسطح وكل شيء .. ووجدت نفسي في صحراء تحيطها الرمال من كل جانب وضوء القمر لا يريني أكثر مما يخفى عليّ.

***

obeikan.com

(4)

تلفت حولي كثيرًا وأنا أمسك المسبحة التي لا أعرف لِمَ أعطاني البدوي إياها !، يجب أن أخرج من تلك الورطة.

هل هذا منزل أم سراب، رأيت بقعة سوداء على مرمى بصري يخيل لي أنها منزل، سرت نحوها وأنا أسمع صوت الرياح وقدماي تغرس في الرمل، ما هذا؟ ملامح البيت تتضح برغم الظلام المحيط به.

يعلوه قبة كقباب المساجد !، لكنه لا يشبه إحداها، أكملت الخطو حتى وصلت له، بناء من خشب أو هكذا رأيت، له باب بلا مقبض !

طرقت الباب فانفتح من ضربة قبضتي، جاء ضوء صغير من داخله وأصوات غريبة كأنني أسمع حلقة ذكر بصوت خافت يشبه الفحيح، فجأة جاء صوت رخيم واضح من داخل المنزل يقول:

-" ادخل أيها المسافر "

خطوت للداخل فوجدت رجلًا ضئيل الجسد يجلس على الأرض مرتكنًا إلى الحائط، حليق الوجه ناعم الشعر يتلفح بعباءة بيضاء على جلباب من نفس اللون، وسيم الوجه لكن عينيه الواسعة أجبرتني على النظر فيها خلافًا عن بقية وجهه.

-" سلامو عليكوا "

-" عليك سلام الله يا مريد الله "

قالها الجالس وأصوات الذكر التي لا أتبين ألفاظها مستمرة في أذني، نظرت حولي أبحث عن مصدرها فلم أجد، المنزل لا يحوي أثاثًا، هناك باب غرفة مغلق وشيء يتدلى من السقف يلقي بضوء أزرق على الجالس يضيف غموضًا على غموضه.

-" بأدور على (المتولي) "

-" وما حاجتك إليه؟ "

-" البدوي قاللي إني لازم أروحله قبل ما أوصل اليمن "

ابتسم الجالس وقال:

-" أمازال الملثم حيًا؟ "

-" أيوه لسة حي .. إنت (المتولي)؟ "

-" ومن غيري يجلس في طريق المسافرين إلى الله؟ أزودهم بالمدد ويثقلوني بالحمول "

-" قال لي البدوي أَّنك شيال الحمول، يعني إيه؟ "

وقف (المتولي) فجأة بسرعة فشعرت أنه أطول مما توقعت وقال:

-" لا أجيبك حتى تجيبني وتزودني بِحِمْلٍ جديد "

-" اسأل "

-" هل تحب الله؟ "

ابتلعت ريقي وأنا أهم بالإجابة بنعم لكن توقفت أفكر .. هل إجابتي حقًا بالموافقة؟

-" مش عارف"

قلتها بنبرة صوت مرتعشة .. فجأة زاد صوت الذكر الذي لا أعرف مصدره واتسعت عين (المتولي) غضبًا وهو يقول:

-" وأنا من دعوتك بمريد الله .. وأنت كالأنعام تأكل وتشرب ولا تفكر "

-" أنا جاوبت بصدق "

قلتها خائفًا وصوت الذكر يعلو من حولي فصرخ في (المتولي):

-" لا مدد ولا زواد لمن لا يحب الله "

-" بس أنا ما بكرهوش "

-" ولا تحبه "

-" ورحلتي لليمن والناس اللي بتموت كل يوم "

-" خالقهم أحن عليهم منك "

فلتت أعصابي وصوتي يعلو قائلًا بغضب:

-" شكلك وكلامك بيقولوا إنك عابد زاهد في الدنيا .. لكن تسيب ناس بيموتوا علشان خاطر.. "

لم أستطع إكمال جملتي عندما أحسست بشيءٍ يدفعني في صدري بقوة دفعتني مترين إلى الوراء، وقعت على الأرض وصدري يؤلمني، و(المتولي) يقول:

-" إلزم الأدب في حديثك يا من ضللت طريقك .. أتعلم حامل حمول الأولياء التعبد "

صرخت عليه:

-" أنا عمري ما كان عندي طريق علشان أضله، وما كدبتش عليك لما سألتني "

-" ولِمَ لم تكذب "

نهضت أترنح ووقفت أقول:

-" يمكن علشان البدوي قاللي أجاوبك من قلبي .. ويمكن علشان محدش سامعني غيرك فما اتكسفتش أقول الحقيقة "

-" ولماذا أخبروني أني سأقابل جند من جنود الله؟ "

قالها (المتولي) وهو يتأملني باحتقار فابتعدت للخلف خطوة باتجاه الباب وأنا أقول منكسرًا:

-" أنا مكاني مش هنا .. حتى معرفش لحد دلوقت اشمعنى أنا اللي حصلي كده "

فجأة دار رأسى ووجدت نفسي معلقًا كما أنا في المسجد بباسوس وتكبيرات الناس من تحتي، نظرت لهم فسمعت صوتًا سكتوا جميعًا كأنهم يسمعوه معي، صوت (المتولي) يقول:

-" عد أيها الفقير إلى الله "

ها أنا أجد نفسي واقفًا أمام (المتولي) كما كنت وهو يقول:

-" دهرًا وراء دهرًا أستقبل الأولياء والمسافرين، لم يجبني أحدهم بمثل ما أجبت، ولم يلقب أحدهم بجند من جنود الله إلاك، ربما أنت أصدقهم وربما كنت أطهرهم "

خطا ناحيتي وهو يكمل:

-" وربما أرسلك الله لتعلمني شيئًا جديدًا "

وقف أمامي وصوت الذكر يعلوا من حولنا وهو يقول:

-" إن القلب كالقمر، نراه يشع حبًا ونحسبه مضاءًا، فنغفل عن جانبه المعتم .. أما أنت فنظرت إلى العتمة وطلبت الضياء، فكنت أشد منا صدقًا، وأكثر منا قربًا، وأعدل منا نفسًا "

لم أنطق ولم أصدق ما يقول، هل حقًا صدقي جعلني أفضل منهم؟ لكني صدقت بعيدًا عن الناس

-" لكنك صدقت مع نفسك، ووالله إنه لأعظم ألوان الصدق "

-" كَأَنَّك قَرِيت مخي "

-" بل نظرت لقلبك، اسأل يا سيدي وأنا أجيبك "

-" إنت مين؟ "

أشار لباب الغرفة المغلقة وقال:

-" ادخل "

ذهبت وفتحت الباب فهالني ما رأيت .. ضوء أبيض من لا مكان، ينير الغرفة التي امتلأت بالغرائب، كأنني في متحف قديم، عشرات الأشياء معلقة على الحائط .. ثياب ملونة وعِصِيّ وعمائم وقطع خشبية غريبة الشكل وسيوف وخناجر، سمعت هنا صوت (المتولي) من ورائي يقول:

-" أنا (المتولي) .. وُلِّيْتُ حَمْلَ متعلقات الأولياء والأنبياء وأحمالهم "

أشار لسيفٍ طويل ممتلئ بالزخارف والألوان وقال:

-" هذا سيف (آصف بن برخيا)، يفلق الجان والغيلان، ولا يمس بني الإنسان"

ثم أشار إلى عصا ضخمة طويلة يتجلى قدمها وقال:

-" وهذه عصا الرفاعي، ضربة منها على الأرض تخضع لك الحيات والأفاعي "

ثم أشار لعموم المتعلقات قائلًا:

-" كل ولي ونبي يترك لي حملًا، ببركة الله وسره يؤدي غرضًا لم تسبقه إليه جن ولا إنس "

-" علشان كدة كان لازم أجيلك الأول "

دخل (المتولي) الغرفة وأمسك بكم طويل رمادي اللون معلق على الحائط، كأنه مقصوص من قميص، أخذه وأعطاه لي ففردته بين يدي أتأمل نقوشه السوداء التي امتلأت بأشكال غريبة، تخيلت أنني أرى كلمات صغيرة الحجم كتبت بطول الكم.

قربته لعيني أدقق وأنا أقرأ بصعوبة تلك الكلمات التي تقول (سهام الليل صائبة المرامي إذا وترت بأوتار الخشوع .. يصوبها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع .. بألسنة تهمهم بالدعاء .. وأجفان تفيض من الدموع .. إذا وترن ثم رمين سهمًا .. فما يغني التحصن بالدروع) .

نظرت للمتولي مندهشًا فقال:

-" هذا درع (الدسوقي)، ارتديه في يدك اليمنى "

أدخلت يدي فيه حتى وصل لكتفي لكنه كان واسعًا، فجأة انغلق علي يدي كأنه له إرادة خاصة !، أصبح مقاس ذراعي تمامًا بينما (المتولي) يقول:

-" إن أشرت بهذه اليد لجني وفي نيتك إنزال الضرر به تخشب بموضعه في الحال "

تأملت الزخارف والنقوش مليًا حين أحضر (المتولي) عمامة خضراء وأعطاها لي ثم خرج لساحة المنزل قائلًا:

-" اتبعني "

تبعته وأصوات الذكر مازالت قائمة كما هي، تأملت العمامة فوجدت كتابة واضحة عليها تقول (إنا كشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)، وقف في وسط المنزل ورفع العمامة التي أرتديها بيده اليسرى وألقاها أرضًا، وأمرني أن أضع العمامة الخضراء وهو يقول:

-" وهذه عمامة (الشاذلي) "

عند وضعها على رأسي شهقت رعبًا .. حولي يقف رجالًا مكونين دائرة وهم يذكرون ويتمايلون، يرتدون البياض ووجوههم مموهة كأنها ممسوحة، خلعت العمامة بحركة سريعة خاطفة فاختفوا.

-" حين تضعها على رأسك ترى ما خفي عن عينك "

قالها (المتولي) فنظرت له متسع العينيين خائفًا، ربت على كتفي وقال:

-" بقى أن تترك لي حملًا "

أفقت من خوفي وأنا أنتبه للسبحة التي أعطاها إليَّ البدوي وأنا أفرد يدي بها للمتولي الذي قال:

-" سأخذها منك حين عودتك .. مسبحة البدوي على كل حبة منها خادم من الجان وهب نفسه لله، إن سبحت عليها رأيته وكان عونك ومددك "

نظرت للمسبحة مأخوذًا و(المتولي) يقول:

-" جهز نفسك لوجهتك يا بني "

ارتديت العمامة فعاد الرجال للظهور أمامي و(المتولي) يضع يده على رأسي قائلًا:

-" لله عباد تطوى لهم الأرض والشمس والقمر .. فإن استغثت بهم صادقًا أدركوك في لمح البصر "

***

(5)

الصحراء أمامي لكني في وقت الظهر، جبال وصخور صفراء اللون، ما هذه الرائحة المنفرة، وضعت يدي الحرة على فمي متأففًا، هل وصلت لمكان بئر قعر جهنم؟

لبست العمامة وتجولت بنظري حتى وجدت على يميني على بعد عشرات الأمتار شيئًا غريبًا .. فتحة في الأرض تخرج منها حيات سوداء لكنها غريبة، لها قرون صغيرة !! .. فجأة خرج من البئر رجلًا رفيعًا نحيلًا لا يرتدي شيئًا، رأسه ضخمة جدًا تشبه البيضة المقلوبة وصلعاء تمامًا، أما أذنيه فطويلة كأذن الحصان.

أمسكت المسبحة وحركت حبة بإبهامي فلم يحدث شيء

-" احذر يا سيدي خلفك "

سمعت الصوت يتردد بأذني فنظرت خلفي لأجد حية سوداء كالتي رأيتها تخرج من الكهف وهي تسير بسرعة ناحيتي، جاء الصوت يقول بسرعة:

-" إنه جني "

رفعت يدي اليمنى ناحية الحية فتوقفت فجأة

-" هل تريدني أن أعيده لهيئته الحقيقية يا سيدي؟ "

قالها الصوت فرددت:

-" أيوا "

فجأة تشكل عن يميني رجل يرتدي اللون الأبيض كمن رأيتهم عند (المتولي)، جرى ناحية الحية وأمسكها وهي لا تتحرك كأنها ميتة، هزها فتحولت لرجل نحيل مخيف المظهر يتكلم بلغة لا أفهمها.

-" بتقول إيه؟"

ظل ينظر لي والجني يكبل يديه خلف ظهره حتى قال:

-" يسب البشر أجمعين يا سيدي "

نظرت للمرتدي البياض وقلت:

-" انت مين؟ "

-" أنا خادم مسبحة البدوي (إبن العازم) "

-" قوله قتلتوا ليه الشيخ (عوسج المصري)؟ "

سأله فنظر الجني لي وتلفظ ببضعة ألفاظ:

-" لأنه كان غبيًا يا سيدي "

-" غبي علشان وقف قدامكم؟ "

-" يقول بأن (عوسج) قتل تسعة عشر جنيًا أمام قاع جهنم بقوة خُدَّامَهُ من الجان ثم نزل فيه "

-"قتلتوه لإنه قتل ناس منكم طبعًا "

ترجم (ابن العازم) كلماتي له فأصدر الجني صوت غريب كأنه يضحك وقال كلامًا كثيرًا، حتى قال (ابن العازم)

-" يقول يا سيدي، بأن (عوسج) جاء للبئر وهو لا يعرف أنه سجن بناه الجان قديمًا كي يسجنوا فيه كل من تمرد منهم، وعينوا عليه عشرون حارسًا، وعندما سقط طفل داخله لم يقبل الحراس بإخراج أو إدخال أحد للبئر، حتى جاء (عوسج) فرأى الجان أمام البئر وتعارك معهم معتقدًا أنهم من خطفوا الطفل، ثم نزل البئر لنا، لكننا لم نرحمه "

ياللمصيبة، لقد فتح الشيخ (عوسج) السجن الذي احتوى على أشر الجان لذلك يعيثون فسادًا منذ قتل الحراس

-" استنى .. انت بتقول إن السجن كان عليه 20 حارس، والعوسج قتل 19، فين الحارس الناقص؟ "

سأله (ابن العازم) ثم قال:

-" للسجن طلاسم تربطهم به لا يعرف سرها إلا الحراس ومن وضعوهم عليه، لذلك يستطيعون التجول حول البئر لكن يعودون له ليلًا وإلا

ماتوا، فحبسوا الحارس الباقي يحاولون استجوابه كي يخبرهم بفك الطلسم، لكنه يأبى "

-" تقدر تقتل الجني ده يا (ابن العازم)؟ "

-" أمرك يا سيدي "

أدخل (ابن العازم) يده من ظهر الجني فخرجت من صدره كأن جسده شفاف، والجني يتألم لثوانٍ قبل أن تخبت حركته ويتركه (ابن العازم)، رفعت المسبحة وأخذت أحرك حباتها بإبهامي بسرعة وأنا أرى الجان يتشكلون من حولي يشبهون (ابن العازم) في هيئته.

-" عايز أنزل البير "

-" سبقناك، وإن ألقيت نفسك نلقفك بقاعه بإذن الله "

-" اسبقوني "

استعذت بالله من الشيطان الرجيم وأنا أجري ناحية البئر بعدما اختفى الجان من حولي، أقترب منه والجان يقفون ناظرين لي، رفعت يدي باسطًا كفي ناحية أحدهم فتسمر مكانه، البئر يقترب وخوفي يزداد، هل من الغباء أن أقفز؟ هل سأموت؟ ولو مت هنا هل أموت بحياتي الأخرى؟ الغرائب كثيرة ولا يضيرها عمل مجنون يزيدها غرابة.

فتحة البئر الضخمة التي تساوي عشرات الأمتار تظهر مظلمة وأنا أجري ناحيتها وأرفع يدي ناحية أي حية أو جني يقترب، نطقت الشهادتين بنفسي وقفزت.

ظلام دامس وأنا أهوى، صرخت بقوة والظلام يتحول لجدران المسجد بباسوس وأنا أهوى من الأعلى للأسفل حتى اصطدمت بأيدي الأتباع وشيخهم وهم يلقفوني.

تبدل المسجد ووجدتني بين يدي خدام مسبحة البدوي وهم يعدلون من وضعي كي أقف على قدمي.

نظرت حولي متأملًا عالمًا غريبًا يأتي إليه ضوء النهار من فتحة لا أراها، غرف كثيرة مفتوحة وعشرات الجان يقفون حولنا وخدام المسبحة يحيطون بي في شكل دائرة، هل ستكون حربًا؟

-" الله .. الله .. الله "

أخذ خدام المسبحة يرددونها وهم يحيطون بي ويعطون وجوههم للجان الذين وقفوا حولنا كأنهم لا يستوعبون ما يحدث.

أنا نفسي لم أفهم ما يحدث، يذكرون الله كأنهم في الحضرة، هل سيمنع هذا السجناء من الفتك بنا؟، اقترب أحد الجان من خدام المسبحة ومد يده ناحيتهم فصعق كأنه تلقى دفعة كهرباء زائدة ووقع أرضًا، صرخت قائلًا:

-" قدني إلى الحارس الباقي يا (ابن العازم) "

وكأن بقية الخدام فهموا ما أقصد فتحركوا ناحية إحدى الغرف ببطء وأنا أمشي بينهم محافظًا على خطوتي، هجم الكثير من الجان على الخدام لكنهم صعقوا جميعًا وصوت الخدام يعلو

-" الله .. الله .. الله "

توقفنا عند غرفة مغلقة لمسها أحد الخدام فانفجر بابها للداخل وغبار يتصاعد منها جعلني أغلق عيني للحظات، فتحت عيني فوجدت كائنًا يشبه الغوريلا له قرون طويلة وعين مشقوقة طوليًا، خرج من الغرفة وفجأة.

وجدت نفسي أمام (المتولي) ببيته وأصوات الذكر لم تنقطع من خدام المسبحة المحيطين بي

-" إيه اللي حصل؟ "

ابتسم (المتولي) الذي كان واقفًا وقال:

-" تحرر حارسهم وعاد لأسياده، وأتوا بحراس جدد"

خلعت العمامة فاختفى الخدام

-" يعني خلاص؟ "

قلتها وأنا ألهث فقال (المتولي):

obeikan.com

-" انتهت مهمتك يا بني، شكرًا لما علمتني إياه "

خلعت الكم ووضعته على العمامة وسلمتهما للمتولي الذي أخذها وقال:

-" عد بالمسبحة للبدوي وقل له، (المتولي) يقرؤك السلام "

اختفى (المتولي) والمنزل ووجدت نفسي على السطح أمام البدوي الذي جلس يسبح الله وحوله جماعة من الناس بينهم (عبد العال)، انتفض الجالسون حول البدوي وهم يستعيذون بالله ويبسملون، بينما نظر البدوي لي بعينيه التي لم أر غيرهما وقال:

-" أهلًا بالمسافر "

مددت يدي بالمسبحة وقلت:

-" انتهت مهمتي، (المتولي) باعتلك السلام "

-" احتفظ بها، فقد علمني الله بِكَ درسًا "

-" درس إيه؟ "

-" رُبَّ عبدٌ من عباد الله يحمل في روحه ذرة من صدق، أفضل من كل ولاة الأرض بمشارقها ومغاربها "

نهض أحد الجالسين ينظر لي فنظرت له واتسعت عيناي، أنا أعرفه، لقد قابلته في المسجد بباسوس

-" هذا أحد أتباعي جاء من المغرب، (مصطفى بن عبد الرحمن) الملقب بسيف الله المغربي، سأرسله غدًا ليدعوا إلى الله في قرية على ضفاف النيل تسمى (باسوس)، فيها مستقره ومقامه بإذن الله "

ابتسم لي (مصطفى) وقال:

-" السلام عليكم يا ولي الله، أخبرني الشيخ (البدوي) عن كراماتك "

دارت الدنيا بي وشعرت بثقل رأسي .. أسمع تكبيرات في أذني؟ ، رأسي يغوص وجسدي يرتخي.

فجأة وجدتني بين يدي (صالح) والشيخ يكبر في أذني، نهضت فطاوعني جسدي بسرعة، أتباع الشيخ من حولي ورجال لا أعتقد أنهم كانوا في المسجد أثناء الحضرة أو الصلاة، الجميع يهلل وبعضهم يحرك شفتيه كأنه يدعو، نظرت ليدي اليمنى فوجدتني أقبض على مسبحة البدوي.

-" لما شوفت المنام أول امبارح وجاني سيدي (سيف) فيه ما صدقتش نفسي لما قالي إن صاحب (صالح) ولي من أولياء الله وإنه جاي المسجد النهاردة، بركاتك "

قالها الشيخ وهو يمسك يدي يقبلها، نهضت مذهولًا وأنا أسمع أحدهم يقول:

-" من دقيقة واحدة كان نايم على الأرض وفجأة طار في السما ونزل تاني ومعاه سبحة، ده من أصحاب الخطوة "

الرجال يقبلون يدي ويلمسون أكتافي كأنهم يأخذون منها البركة والتكبيرات تدوي في المسجد .. وأنا أفكر .. هل أرسلت إلى البدوي و(المتولي) لأتعلم منهما أم لأعلمهما؟ هل ما حدث حقيقة أم حلم طويل؟ كيف جائت تلك المسبحة ليدي؟

فتحت باب شقتي ودخلت بعدما تركني الشيخ وأتباعه أخيرًا، سمعت صوت أمي تقول:

-" اتأخرت ليه يا حبيبي؟ كنت فين؟ "

جلست على أقرب مقعد لي وأنا أتحسس المسبحة في جيب سروالي وأقول:

-" كنت بزور واحد صاحبي عيان في (باسوس) "

جلست أمي على المقعد المجاور وهي تقول:

-" ياااااااااااااه، (باسوس)، تعرف إني زرتها مرة واحدة بس، كان لسة أبوك ميت وانت ما كملتش سنة وعمال تعيط كل دقيقة من غير سبب .. واحدة جارتنا قالتلي خديه وزوري بيه مقام سيدي (سيف) اللي على البحر في (باسوس) "

نظرت لها فأكملت هي:

-" أخدتك ودخلت المقام وهناك قابلت واحد باين عليه خادم المقام أو حاجة كدة، كان اسمه (مصطفى) .. أيوا هو قاللي إن إسمه (مصطفى

عبد الرحمن)، مش هنساه، أول ما حط إيده على راسك بطلت عياط وبقيت تضحك، ساعتها قاللي إنك في يوم من الأيام هتبقى حاجة كبيرة أوي، وهترجع المقام تاني .. بس سبحان الله ما رجعتش تعيط زي الأول وبقيت طبيعي "

ضحكت .. وارتفعت ضحكاتي أكثر وأنا أرجع رأسي إلى الوراء، وأمي تقول:

-" ما تضحكني معاك "

***

تمت

obeikan.com

أعمال الكاتب

- مخطوطة ابن إسحاق (مدينة الموتى)
- مخطوطة ابن إسحاق (المرتد)
- مخطوطة ابن إسحاق (العائد)
- الجزار
- نصف ميت
- لقاء مع كاتب رعب
- حكايات فرغلى المستكاوي
- فى حضرة الجان
- ابتسم فأنت ميت

obeikan.com

للتواص مع الكاتب

https://www.facebook.com/profile.php?id=100001343653770

obeikan.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikan.com